جزيرة الدكتور مورو

رواية

فريق متميزون

E-BOOK

هربرت جورج ويلز

ترجمة: نشهرت العالم



مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

جزيرة الدكتور مورو
رواية مترجمة..

هربرت چورچ ويلز
ترجمة: شهرت العالم

مقدمة

في الأوّل من فبراير 1887، فُقِدت السفينة «ليدي فين» بعد اصطدامها بسفينة مهجورة عند خط العرض 1° جنوبًا وخط الطول 107° غربًا.

وفي الخامس من يناير 1888 -أي بعد مرور أحدَ عشرَ شهرًا وأربعة أيامٍ– عُثِر على عمِّي، إدوارد برينديك، عند خط العرض 35 ° جنوبًا وخط الطول 101° غربًا؛ وذلك بعد أن اعتبرناه مات غرقًا لأنَّه كان بالتأكيد على متن السفينة «ليدي فين» في كالاو. وعمِّي رجلٌ نبيلٌ، يمتلك عملًا خاصًّا، عُثِر عليه في قاربٍ صغيرٍ مفتوحٍ تَعَذَّر قراءة اسمه، وإن كان من المفترض أنَّه يخصُّ المركب الشراعي المفقود «إيبيكاكواناً». حكى عمِّي رواية غريبة عمَّا حدث له، إلى حدِّ أن اعتبره الناس معتوهًا. ثم زعم في وقتٍ لاحقٍ أنَّه نسي كلَّ ما حدث منذ نجاته من السفينة «ليدي فين». ناقش علماء النفس في ذلك الوقت حالتَه باعتبارها حالة غريبة لفقدان الذاكرة الناجم عن الإجهاد البدني والعقلي. وقد وجد ابن أخيه ووريثه، الموقِّع أدناه، السرد التالي بين أوراقه، وإن لم يصحبه أيُّ طلبٍ محدَّد للنشر.

لا توجد في المنطقة التي عُثِر فيها على عمِّي سوى جزيرة وحيدة معروف وجودها، جزيرة نوبل، وهي جزيرة بركانية صغيرة وغير مأهولة. وقد زارتها السفينة «إتش. إم. إس. سكوربيون» عام 1891، ونزلتْ مجموعة من البحَّارة لتتفقَّدها، لكنَّهم لم يجدوا أيَّ شيءٍ حيٍّ فيها باستثناء بعض العثِّ الأبيض الغريب، وبعض الخنازير والأرانب، وبعض الفئران الغريبة إلى حدٍّ ما. وبالتالي، يأتي هذا السرد دون أيِّ دليلٍ لأكثر تفاصيله أهمية. وانطلاقًا من هذا الفهم، ما من ضررٍ في عرض هذه القصَّة الغريبة على الجمهور، وفقًا -كما أعتقدُ- لنوايا عمِّي. وهناك على الأقل ما يؤيِّد حكاية عمِّي: لقد فُقِد أثرُ عمِّي عند خط العرض 5° جنوبًا وخط الطول 105° شرقًا، ثم ظهر ثانية في الموقع نفسِه من المحيط بعد أحدَ عشرَ شهرًا. لا بُدَّ أنَّه عاش بطريقة ما خلال هذا الفاصل الزمني. ويبدو أنَّ المركب الشراعي «إيبيكاكوانا»، وقبطانه السكير جون ديفيز، قد بدأ رحلته من أفريقيا في يناير 1887، مصطحبًا معه أنثى حيوان البوما (1) وبعض الحيوانات الأخرى. وكانت السفينة معروفة جيِّدًا في عدة موانئ في جنوب المحيط الهادئ، لكنَّها اختفتْ في النهاية من تلك البحار (وعلى متنها كميةٌ كبيرةٌ من لبِّ جوز الهند)، وأبحرت إلى مصيرِها المجهول من باينا في ديسمبر 1887، وهو تاريخٌ يتوافق تمامًا مع قصَّة عمِّي.

تشارلز إدوارد برينديك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(1)

في زورق نجاة السفينة «ليدي فين»

لا أنوي إضافة أيِّ شيءٍ إلى ما سبق أن كُتِب عن فقدان السفينة «ليدي فين». يعرف الجميع أنَّها اصطدمتْ بحُطام سفينة مهجورة، بعد أن غادرت كالاو بعشرة أيامٍ. تمكَّنتْ السفينة الحربية «إتش. إم. ميرتل» من العثور على القارب الطويل، وعلى متنه سبعة من أفراد الطاقم، بعد ثمانية عشر يومًا، وأُشتهِرت قصَّة ضياعهم المُروِّعة مثل قصة ميدوسا الأكثر فظاعة. لكنَّني يجب أن أضيف إلى قصَّة «ليدي فين» المنشورة قصَّة أخرى، ربما أكثر رعبًا وغرابة. فقد افترض الجميعُ موتَ الرجال الأربعة الذين كانوا في زورقِ النجاة، لكنَّ هذا غيرُ صحيحٍ. وأفضل دليلٍ على ذلك: أنَّني كنتُ واحدًا من هؤلاء الرجال الأربعة.

لا بُدَّ أن أذكر في البداية أنَّ زورق النجاة لم يضم أربعة رجالٍ، بل ثلاثة. ذلك أنَّ كونستانس، الذي «شاهده القبطان وهو يقفز إلى قاربه»(2)، لم يصلْ إلينا - لحسن حظنا، وسوء حظِّه. فقد نزل على الحِبال المتشابكة أسفل دعائم الصاري المُحَطَّم؛ وعندما ترك الحِبال، علِق حبلٌ صغيرٌ بكعبه، فتعلَّق للحظة ورأسه إلى أسفل، ثم سقط واصطدم بكتلة خشبية أو صارية تطفو في الماء. توجهنا بالزورق نحوه، لكنَّه لم يظهر أبدًا.

أقول من حُسن حظِّنا إنَّه لم يصل إلينا، وأقول إنَّه من حُسن حظِّه أيضًا؛ إذ لم يكن لدينا سوى دورقٍ صغيرٍ من الماء وبعض بسكويت السفينة الرطب. لقد كان الإنذار مفاجئًا، ولم يكن القاربُ مستعدًا لأيِّ كارثة. تصوَّرنا أنَّ الناس في القارب لديهم مؤنٌ كافية (مع أنَّ الأمر لم يكن يبدو كذلك)، وحاولنا أن ننادي عليهم. لم يكن بإمكانهم سماعنا، وفي صباحِ اليوم التالي عندما انقشع الرذاذ (الذي لم يحدث حتى منتصف النهار الماضي) لم نتمكَّن من رؤيتِهم. لم نتمكَّن من الوقوف للنظر حولنا، بسبب اهتزاز القارب. أمَّا الرجلان الآخران اللذان هربا معي، كان أحدُهما يُدعى هيلمار، وهو من الركاب مثلي؛ وكان الثاني بحَّارًا لا أعرف اسمه، وهو رجلٌ قويٌّ قصيرٌ، ويتلعثم في الكلام.

انجرف زورقُنا. كنَّا جوعى؛ وبعد أن نفدت مياهُنا، عُذِّبنا عطشًا لا يُطاق لمدة ثمانية أيامٍ كاملة. هدأ البحر ببطءٍ بعد اليوم الثاني، وتحوَّل سطحُه إلى سكونٍ يماثل سطحًا زجاجيًّا. يستحيل أن يتصوَّر القارئ العادي تلك الأيام الثمانية؛ فلا يوجد في ذاكرته، لحُسن حظِّه، أيُّ شيءٍ يجعله يتخيَّل هذا الوضع. لم نتحدَّث كثيرًا بعد اليوم الأول، وتمدَّدنا في أماكننا بالقارب ونحن نحدِّق بالأفق، أو نشاهد بأعين تزداد جحوظًا وإنهاكًا كلَّ يومٍ، البؤس والضعف يتملكَّان رفاقنا. اشتدتْ حرارة الشمس بلا رحمةٍ. نفدت المياه في اليوم الرابع، وكنَّا نفكر بالفعل في أشياءٍ غريبة ونقولها بأعيننا. لكنَّه كان اليومَ السادس، كما أعتقد، عندما نطق هيلمار وأفصح عن الشيء الذي كنَّا نفكر فيه جميعًا. أتذكَّر أنَّ أصواتنا كانت جافة وضعيفة، إلى حدِّ أن انحنى بعضُنا نحو بعضٍ، واقتصدنا في كلماتنا. وقفتُ ضد اقتراحه بكلِّ ما لديَّ من القوة، مفضِّلًا إغراق القارب والهلاك معًا بين أسماك القرش التي تتبعنا. ولكن عندما قال هيلمار إنَّنا سنجد ما نشربه إذا قبلنا اقتراحه، جاء البحار إليه.

لم أكن لأوافق على إجراء القرعة، لكنَّ البحارَ ظلَّ يهمس ليلًا مرارًا وتكرارًا لهيلمار. جلستُ عند مقدمة القارب وفي يدي مطواة، على الرغم من أنَّني أشكُّ في استعدادي للقتال. وفي الصباح وافقتُ على اقتراح هيلمار، واستخدمنا نصف بنسٍ لإجراء القرعة. جاءت نتيجة القرعة باختيار البحار، لكنَّه كان الأقوى بيننا؛ ولم يلتزم بالنتيجة، وهاجم هيلمار بيديه. تعاركا. زحفتُ على طول القارب نحوهما، عازمًا على مساعدة هيلمار عن طريق الإمساك بساق البحار؛ لكنَّ البحار تعثَّر مع تمايل الزورق، وسقط الاثنان على حافته العليا، وتدحرجا معًا وسقطا في البحر، وغرقا كحجرين. أتذكر أنَّني ضحكتُ على هذا الموقف، وتساءلتُ

لماذا ضحكت. لقد انتابتني حالة من الضحك فجأة، كشيء خارج عن إرادتي.

رقدتُ لفترة، لا أعرف طولَها، ورأسي مستندٌ على مقعدِ التجديف؛ وفكرتُ أنَّني لو كنتُ قويًّا، لشربت من مياه البحر كي أُصاب بالجنون وأموت سريعًا. رأيتُ وأنا راقدٌ في مكاني –دون اهتمامٍ كأنَّني أشاهد صورة– شراعًا يرتفع من خطِّ الأفق نحوي. لا بُدَّ أنَّني كنتُ شاردًا، لكنَّني أتذكر كلَّ ما حدث بوضوحٍ تامٍ. أتذكر كيف تمايل رأسي مع تمايُل مياه البحر، وكيف تراقص الشراع في الأفق أمامي صعودًا وهبوطًا. لكنَّني أتذكَّر بوضوحٍ أيضًا اقتناعي بأنَّني ميتٌ، وخطر لي كم هو مضحكٌ أنَّهم تأخروا قليلًا حتى يجدوا جثتي.

بقيتُ راقدًا لفترة، بدت لا نهائية، ورأسي على مقعد التجديف أراقب المركب الشراعي (كانت سفينة صغيرة، مزوَّدة بمركبٍ شراعيٍّ في المقدمة والمؤخرة) يقترب تدريجيًّا. واصلتْ التحرُّك جيئة وذهابًا على نطاقٍ آخذ في الاتساع، لأنَّها كانت تُبحِر عكس اتجاه الريح. لم يدُر بخَلَدي أبدًا محاولة جذب انتباهها. ولا أتذكر أيَّ شيءٍ واضحٍ بعد رؤية جانبها، إلى أن وجدتُ نفسي في كابينة خلفية صغيرة. تحضرني ذاكرة ضعيفة أنَّني محمولٌ على سلم المركب، ويحدق إليَّ -فوق جانب السفينة- وجهٌ مستديرٌ كبيرٌ مغطى بالنمش ومحاطٌ بشعر أحمر. لديَّ أيضًا انطباعٌ آخر عن وجه أسمر بعينين غير عاديتين على مقربة من وجهي؛ تصورتُ أنَّه كابوسٌ، إلى أن قابلته مرَّة أخرى. أتخيَّل تذكُّري لشيء ما ينسكب بين أسناني. وهذا كل ما أذكره عن إنقاذي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

الرجل الذي كان ذاهبًا إلى اللا مكان

كانت الكابينة التي وجدتُ نفسي فيها صغيرةً وغير مرتبةٍ إلى حدٍّ ما. كان شابًا بشعرٍ كالكتان، وشاربٍ خشنٍ بلونِ القشِّ، وشفة سفليّة متدلية، يجلس ويحمل معصمي. بقينا لدقيقة يحدّق كلٌّ منّا بالآخر دون أن نتحدَّث. كانت عيناه رماديتين دامعتين، خاليتين بشكلٍ غريبٍ من التعبير. ثم صدر من فوقي صوتٌ يُشبِه الطرق على هيكل سريرٍ حديديٍّ، وهديرٍ غاضبٍ منخفض لبعض الحيوانات الكبيرة. وفي الوقت نفسه، تحدَّث الرجلُ. كرَّر سؤاله: «كيف تشعر الآن؟».

أعتقد أنَّني قلتُ إنَّني بخيرٍ. لم أستطع أن أتذكَّر كيف وصلتُ إلى هناك. لا بُدَّ أنَّه رأى السؤال في وجهي؛ فلم أتمكَّن حتى من سماع صوتي.

«قد وجدناكَ في زورقٍ، وكنتَ تتضوَّر جوعًا. كان الاسم المكتوب على القارب هو «ليدي فين»، وكانت توجد بقعٌ من الدماء على حافته العلوية».

وفي الوقت نفسه، وقعت عيني على يدي؛ كانت على درجة من النحول بحيث بدت وكأنَّها كيسٌ قذرٌ من الجلد، يمتلئ بعظامٍ منفصلة، وعندئذٍ تذكَّرتُ كل ما حدث لي على القارب.

قال: «خُذْ، أشرب هذا»، وأعطاني جرعة من شرابٍ قرمزيٍّ مثلَّج.

كان مذاقه مثل الدم، وجعلني أشعر بالقوة.

قال: «أنتَ محظوظٌ، فقد عثرتْ عليك سفينة على متنها طبيبٌ». كان لعابه يسيل وهو يتحدث، كما كان يتلعثم قليلًا.

قلتُ ببطءٍ، وبصوتٍ أجش بعد صمتي الطويل: «أيُّ سفينة هذه؟».

«إنَّها سفينة تجارية صغيرة من إفريقيا وكالاو. لم أسأل أبدًا من أين أتت في البداية. أعتقد أنَّها انطلقت من أرض وُلِد أهلُها حمقى. أنا عن نفسي، راكبٌ من أريكا. الأحمق السخيف الذي يملكها... هو قبطانها أيضًا، واسمه ديفيز... فقد ترخيصه، أو شيئًا من هذا القبيل. أنت تعرف نوع هذا الرجل... إنه يدعو سفينته «إبيكاكوانا»، من بين كل الأسماء السخيفة الجهنمية؛ على أنَّها تتحرَّك جيِّدًا عندما تكون مياه البحر وفيرة ودون رياح».

(ثم بدأ الضجيج فوقنا مرَّة أخرى، صوتُ هديرٍ وزمجرة وصوت إنسان. ثم صوت آخر، يخبر «أحمقَ منبوذًا من السماء» أن يكفَّ).

قال مُحدِّثي: «أنتَ كنتَ على وشك الموت. كنتَ قريبًا منه جدًّا، في الواقع. لكنَّني أعطيتُكَ الآن بعضَ المواد. هل لاحظتَ أنَّ ذراعكَ تؤلمكَ؟ إنَّها الحُقن. لقد فقدتَ الوعي لِمَا يقرب من ثلاثين ساعة».

كنتُ أفكّر ببطءٍ. (تشتَّت ذهني الآن بسبب عُواء عددٍ من الكلاب). سألته: «هل يمكنني تناول طعامٍ صلب؟».

أجاب: «لحم الضأن يغلي الآن، بفضلي».

قلتُ مؤكِدًا: «نعم، يمكنني أن آكل لحم الضأن».

«ولكن»، قال بتردُّدٍ لحظي، «أنتَ تعرف أنَّني أتحرَّق شوقًا لمعرفة كيف أصبحتَ وحيدًا

في هذا القارب. اللعنة على هذا العُواء!». أعتقد أنَّني لاحظتُ بعض الشكِّ في عينيه.

غادر الكابينة فجأة، وسمعته في جدلٍ عنيفٍ مع شخصٍ ما، بدا لي أنَّه يردُّ عليه بكلامٍ مبهمٍ. بدا الأمر كأنَّما انتهى بلكماتٍ، لكنني اعتقدتُ أن أذنيَّ كانتا مخطئتين. صاح في الكلاب، ثم عاد إلى الكابينة.

«حسنًا؟»، قال، وهو يقف عند المدخل، «كنتَ على وشك أن تبدأ في إخباري».

أخبرته باسمي، إدوارد بريندِيك، وكيف اتخذت من التاريخ الطبيعي مُنقِذًا لي من رتابة حالتي المرفهة.

بدا مُهتمًا. وقال «لقد درستُ العلوم أيضًا. درستُ عِلم الأحياء في كلية جامعية – استئصال مبيض دودة الأرض، ولسان الحلزون، وغير ذلك. يا إلهي! مضتْ عشر سنواتٍ على ذلك. ولكن، استمر! واصلْ قصتَكَ! أخبرني عن القارب».

وكان من الواضح أنَّه راضٍ عن صراحتي في رواية قصتي، التي حكيتُها في جملٍ مُوجزة كافية لأنَّني شعرتُ بضعفٍ شديدٍ. وما أن انتهيت، عاد على الفور إلى موضوع التاريخ الطبيعي ودراساته البيولوجية. بدأ يسألني بعناية عن طريق توتنهام كورت وشارع جووير: «هل لا يزال كابلاتزي مزدهرًا؟ يا له من متجرٍ!». من الواضح أنَّه كان طالبَ طب عاديًّا، ثم انجرف إلى موضوع قاعات الموسيقى. وحكى لي بعضَ النوادر.

قال: «تركتُ كلَّ شيءٍ منذ عشر سنوات. يا لها من فترة كان كلُّ شيءٍ فيها مبهجًا! لكنَّني تصرَّفتُ بغباءٍ؛ استنفدتُ كلَّ شيء قبل أن أبلغ الحادية والعشرين. وأجرؤ على القول إنَّ كلَّ شيء اختلف الآن. يجب أن أتفقَّد الآن ما فعله الطبَّاخ الأحمق بلحمِ الضأن».

تجدَّد صوت الزمجرة فوقنا على نحوٍ مفاجئ، مصحوبًا بغضبٍ وحشيٍّ شديدٍ أصابني بذهولٍ. «ما هذا؟» ناديتُ عليه، لكنَّه كان قد أغلق الباب. عاد مرَّة أخرى ومعه لحم الضأن المسلوق. شعرتُ بتحمُّسٍ شديدٍ من هذه الرائحة التي تفتح الشهية، لدرجة أنَّني نسيتُ ضجيجَ الوحش الذي أزعجني.

تعافيتُ بعد يومٍ من التناوب بين النوم والطعام، بحيث أصبحتُ قادرًا على النهوض من سريري والتحرك إلى الكوة، ورؤية البحار الخضراء وهي تحاول اللحاق بنا. كان تقديري أنَّ المركبَ الشراعي يسير في اتجاه هبوب الرياح. جاء مونتجمري (وهو اسم الرجل ذو الشعر الكتاني) بينما كنتُ واقفًا هناك، فطلبت منه بعضَ الملابس. أعارني بعض ملابسه، لأنَّ الملابسَ التي كنتُ ارتديها في القارب أُلقيت في البحر. كانت ملابسه فضفاضة بالنسبة لي؛ لأنَّه كان ضخمًا وأطرافه طويلة. أخبرني عرضًا أنَّ القبطان كان ثملًا في مقصورته. وبعد أن ارتديتَ الملابس، بدأتُ أسأله عن وجهة السفينة. قال إنَّ السفينة كانت متجهة إلى هاواي، لكنها يجب أن تتوقَّف ليهبط هو أولًا.

سألته: «أين؟».

أجاب: «في الجزيرة التي أعيش فيها. وليس لها اسمٌ، على حدِّ علمي».

نظر نحوي محدِّقًا وشفته السفلية متدلية. بدا فجأة غبيًّا عن عمدٍ، لدرجة أنَّني تصوَّرتُ أنَّه يرغب في تجنُّب أسئلتي. وكان في تقديري أن أكفَّ عن الأسئلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

الوجه الغريب

غادرنا الكابينة، ووجدنا رجلًا يقف عند سلم السفينة ويعرقل طريقنا. كان يقف على السلم وظهره لنا، ويطلُّ من فتحة باب السفينة الأرضي. رأيتُ أنَّه رجلٌ غريبُ الشكل، قصيرٌ، عريضٌ، وأخرق، كما أنَّه أحدب، ورقبته مشعرة، ورأسه غارقٌ بين كتفيه. كان يرتدي ملابسَ زرقاء داكنة، وشعره أسود خشن كثيفٌ بشكلٍ غريبٍ. سمعتُ الكلابَ غير المرئيَّة تعوي بشراسة، انحنى الرجل إلى الوراء على الفور، ولمس يدي التي مددتها لصدِّه عني. استدار بسرعة حيوانية.

ومض الوجه الأسود بطريقة لا يمكن تحديدها، وشعرتُ بصدمة شديدة؛ فقد كان مُشوَّهًا بشكلٍ فريدٍ. كان الجزء الذي ظهر من الوجه يشبه أنف الحيوانات، وأظهر فمه الضخم نصف المفتوح أسنانًا بيضاء كبيرة لم أشهد مثلها من قبل في فمٍ بشريٍّ. كانت عيناه ملطَّختين بالدماء عند الحواف، مع بالكاد حافة بيضاء حول الحدقتين العسليتين. كان بوجهه توهجٌ غريبٌ من الإثارة.

قال مونتجمري: «ماذا بكَ! لماذا لا تبتعد عن الطريق؟».

تنحَّى الرجل أسود الوجه جانبًا دون أن ينبس بكلمة. أمَّا أنا، فقد صعدتُ على سلَّم السفينة، ذهبتُ وأنا أحدق إليه بشكلٍ غريزيٍّ. ظلَّ مونتجمري في الأسفل للحظة، ثم قال بنبرة متعمَّدة: «ليس لديَك أيُّ عملٍ هنا، كما تعرف. مكانكَ عند المقدمة».

انكمش الرجل أسود الوجه مرتعدًا. ثم قال ببطءٍ، وبصوتٍ أجشَّ غريبٍ: «إنَّهم... لا يسمحون لي بالوجود عند المقدمة».

قال مونتجمري بنبرة تهديد: «لا يسمحون لك بالوجود عند المقدمة! لكنَّني أقول لكَ أن تذهب!». كان على وشك قول شيء آخر، ثم نظر نحوي فجأة، وتبعني إلى أعلى السلم.

كنتُ قد توقفتُ في منتصف الطريق نحو الباب الأرضي، ونظرتُ إلى الوراء وأنا لا أزال مذهولًا إلى أبعد الحدود من بشاعة قُبح هذا المخلوق أسود الوجه. لم يسبق لي أن رأيتُ مثل هذا الوجه البغيض غير العادي من قبل، ومع ذلك -إذا كان التناقض جديرًا بالثقة— شعرتُ في الوقت نفسه بشعورٍ غريبٍ؛ أنَّني رأيت بالفعل، على نحوٍ ما، تلك الملامح والإيماءات التي أذهلتني الآن. ثم تبادَرَ إلى ذهني أنني ربما رأيته عندما كانوا يرفعونني إلى متن السفينة؛ لكن ذلك لم ينهِ شكِّي بأنَّنا تعارفنا من قبل. كيف يمكن للمرء أن يشهد وجهًا فريدًا ومع ذلك لا يتذكر بدقة مناسبة ذلك اللقاء.

لفتتْ انتباهي حركة مونتجمري لمتابعتي؛ فاستدرتُ ونظرتُ حولي إلى سطح المركب الشراعي الصغير. كنتُ بالفعل شبه مستعدٍ لِمَا رأيته، نظرًا للأصوات التي سبق أن سمعتها. بالتأكيد لم أرَ سطح مركبٍ بهذه القذارة من قبل. امتلأ السطح ببقايا جزر، وقطعٍ من أشياء خضراء، وقذارة لا تُوصَف. رأيتُ عددًا من كلاب الصيد المروِعة، مربوطة بسلاسلَ في الصاري الرئيس، وبدأتْ الآن في القفز والنباح تجاهي. ورأيتُ عند الصاري الخلفي بومة ضخمة مُحتجَزة في قفصٍ حديديٍّ ضيقٍ وصغيرٍ جدًا لا يعطيها مساحة للحركة. وتوجد على مسافة، عند الجانب الأيمن، بعضُ الأقفاص الكبيرة التي تحتوي على عددٍ من الأرانب، وأمامها حيوان لاما وحيدٌ محشورٌ في قفصٍ. كانت الكلاب مكمَّمة بأشرطة جلدية. أمَّا الكائن البشري الوحيد على سطح السفينة، فكان بحارًا نحيلًا وصامتًا عند عجلة القيادة.

كانت الصواري المرقَّعة القذرة مشدودة في مواجهة الرياح، وبدا من السطح أنَّ السفينة الصغيرة ترفع كلَّ شِراعٍ لديها. كانت السماء صافية، والشمس في منتصف الطريق نحو الغروب؛ كما كانت موجات البحر الطويلة، التي يتوِّجها النسيم والزبد، تجري معنا. مررنا بجوار قائد الدفة، ووصلنا إلى الدرابزين المحيط بمنطقة السطح المفتوحة عند مؤخرة المركب، ورأينا رغاوي الماء تتدفَّق أسفل المؤخرة، وفي أعقابها تتراقص الفقاعات ثم تتلاشى. استدرتُ، وفحصتُ سطح السفينة البغيضة.

سألتُ: «هل هذه حديقة حيوانات المحيط؟».

أجاب مونتجمري: «يبدو ذلك».

«ما هذه الوحوش؟ هل هي سلعٌ، أم كائناتٌ نادرة؟ هل يعتقد القبطان أنه سيبيعها في مكانٍ ما عند البحار الجنوبية؟».

أجاب مونتجمري: «هذا ما يبدو، أليس كذلك؟»، ثم استدار لمشاهدة أثر المركب في الماء ثانية.

وفجأة سمعنا عُواءً ووابلًا من الشتائم الغاضبة يصدر من الباب الأرضي المفضي إلى السلم، وجاء الرجل المشوَّه أسود الوجه مسرعًا. وتبِعه على الفور رجلٌ ذو شعرٍ أحمر كثيف، ويرتدي قبعة بيضاء. تحمَّستْ الكلاب بشراسة عندما رأت الرجل المشوَّه (رغم أن نباحها في وجهي كان قد أصابها حينذاك بالتعب) وأخذت تنبح وتقفز على سلاسلها، تردَّد الرجل الأسود أمام الكلاب، وهو ما أعطى الرجل أحمر الشعر وقتًا ليصعد خلفه، ويوجه إليه لكمة هائلة بين كتفيه. سقط الرجل الشيطان البائس مثل ثورٍ جريحٍ، وتدحرج في التراب بين الكلاب الغاضبة. ومن حُسن حظِّه أنَّ الكلاب كانت مكمَّمة. أطلق الرجل أحمر الشعر صيحة ابتهاجٍ ووقف مترنِّحًا. بدا لي وجود خطرٍ كبيرٍ؛ سواء تراجع إلى الخلف وهبط السلم إلى الباب الأرضي، أو تحرك إلى الأمام في اتجاه ضحيته.

بدأ مونتجمري يتحرك إلى الأمام، بمجرد ظهور الرجل الثاني. وصاح بنبرة احتجاج: «قفْ مكانَك!». ظهر بحَّاران أعلى مقدمة المركب. تدحرج الرجل أسود الوجه، وهو يعوي بصوتٍ غريبٍ، تحت أقدام الكلاب. لم يحاول أحدٌ مساعدته. بذلت الحيوانات المتوحشة قصارى جهدها لإخافته، ونطحته بكماماتها. تحرَّكت بأجسادها الرمادية الرشيقة في رقصة سريعة فوق الجسد الأخرق المنبطح أرضًا. تصايح البحَّارة، كأنَّها رياضة مثيرة للإعجاب. أطلق مونتجمري صيحة تعجُّبٍ غاضبٍ، ونزل إلى أسفل سطح السفينة، وتبعته. صعد الرجل أسود الوجه مترنحًا، وانحنى على الدرابزين بجوار الأغطية الرئيسة للصواري، حيث ظلَّ واقفًا يلهث ويحدق من فوق كتفه إلى الكلاب. ضحك الرجل أحمر الشعر برضى.

قال مونتجمري، وقد زاد تلعثمه قليلًا، وكان يمسك بمرفقي الرجل أحمر الشعر: «انظر أيها القبطان، هذا لن يفلح».

كنت أقف خلف مونتجمري. استدار القبطان قليلًا، ونظر إليه بعينين ثقيلتين لرجلٍ مخمورٍ، قائلًا: «ماذا لن يفلح؟»؛ ثم أضاف، بعد النظر بنُعاسٍ إلى وجه مونتجمري لمدة دقيقة: «أنت جرّاحٌ لعينٌ!».

هزَّ ذراعيه بحركة مفاجئة. وبعد محاولتين عقيمتين، وضع قبضتيه المنمشتين في جيبيه الجانبيين.

قال مونتجمري: «هذا الرجل هو أحد الركاب، وأنصحك بأن تُبقِي يديك بعيدًا عنه».

قال القبطان بصوتٍ عالٍ: «اذهب إلى الجحيم!»؛ ثم استدار فجأة وهو يترنح نحو الجانب،

قائلًا: «أنا أفعل ما أريد على سفينتي».

تصوَّرتُ أنَّ مونتجمري سوف يتركه بعد أن رأى أنَّه مخمورٌ؛ لكنَّه شحب قليلًا فحسب، وتبِع القبطان إلى جانب المركب.

قال: «انظر هنا، أيُّها القبطان. هذا رجُلي، ولا يمكنك إساءة معاملته. لقد تعرَّض لمضايقاتٍ عديدة منذ أن صعد على متن القارب».

أبقت الأبخرة الكحولية القبطان عاجزًا عن الكلام لدقيقة؛ ثم صاح: «جراحٌ لعينٌ!» — وهذا .كان كل ما اعتبر من الضروري قوله

أدركتُ أنَّ مونتجمري يتمتَّع بمزاجٍ بطيءٍ وعنيدٍ، يزداد سخونة يومًا بعد يومٍ إلى أن يصل إلى حدٍّ يصبح معه التسامح مستحيلًا. وأدركتُ أيضًا أنَّ هذه المشاجرة تتصاعد منذ فترة. قلتُ، ربما بعجرفة: «الرجل مخمورٌ، ولن تصل معه إلى أي شيء».

لوى مونتجمري بقبحٍ شفته المتدلية. «إنَّه مخمورٌ دائمًا. هل تعتقد أن هذا يُبرِّر اعتداءه على ركابه؟».

قال القبطان، وهو يلوِّح بيده المهتزَّة نحو الأقفاص: «كانت سفينتي نظيفة. انظروا إليها الآن! إنَّها بالتأكيد أي شيء إلَّا أن تكون نظيفة. واصل القبطان: «والطاقم، إنَّه طاقمٌ نظيفٌ، ومحترمٌ».

«أنتَ وافقتَ أن تأخذ الحيوانات».

«كنت أتمنى لو أنَّ عينيَّ لم تشهد جزيرتَك الجهنمية. من بحق الشيطان يريد وحوشًا على جزيرة مثل هذه؟ ثم جاء رجُلك هذا، وتصوَّر أنَّه رجلٌ. إنَّه مجنونٌ؛ وليس لديه عملٌ عند مؤخرة السفينة. هل تعتقد أن السفينة اللعينة، كلها سفينتك؟».

«بدأ بحارتك في مضايقة الشيطان البائس بمجرد أن صعد على متن السفينة».

«هذا ما هو عليه - إنَّه شيطانٌ! شيطانٌ قبيحٌ! لا يستطيع رجالي تحمُّله، ولا أستطيع أنا تحمُّله. لا أحد منا يستطيع أن يتحمَّله، ولا أنت أيضًا!».

استدار مونتجمري مبتعدًا. قال وهو يومئ برأسه خلال حديثه: «على أيِّ حالٍ، دعْ هذا الرجلَ وشأنه».

على أنَّ القبطان كان يريد الشجار الآن. رفع صوته قائلًا: «إذا جاء إلى مؤخرة هذه السفينة ثانية، سوف أمزِّق أحشاءه. أقول لكم، سوف أمزق أحشاءه المنتفخة! من أنتَ كي تخبرني ما أفعل؟ أنا قبطان هذه السفينة، قبطانها ومالكها. أنا هنا القانون، أقول لك — أنا القانون والقائد. لقد اتفقتُ على اصطحاب رجلٍ ومرافقه من وإلى أريكا، وإعادة بعض الحيوانات. لم أتفق أبدًا على اصطحاب شيطانٍ مجنونٍ وطبيبٍ جراحٍ سخيفٍ، أأ...».

حسنًا، لا يهم ما قاله عن مونتجمري. رأيت مونتجمري يخطو خطوة إلى الأمام، ليتدخل في الحديث. قلتُ: «إنَّه مخمورٌ». بدأ القبطان يطلِق إساءاتٍ أكثر حمقًا حتى مما قاله من قبل. قلتُ له بحدَّة: «اخرس!»، لأنَّني رأيتُ الخطرَ في وجه مونتجمري الأبيض. وبذلك جلبت لنفسي وابلًا من الإساءات.

بيد أنَّني كنتُ سعيدًا لنجاحي في تجنُّب ما كان على وشك أن يتحوَّل إلى عراكٍ، حتى وإن كان الثمن هو ما تعرضت له من إساءاتِ القبطان المخمور. لا أعتقد أنَّني سمعتُ كلَّ هذا القدر من اللغة الخسيسة، ينطلق في تيارٍ مستمرٍ من شفاه أي رجل من قبل، على الرغم من

أنَّني اعتدتُ على صحبة غريبي الأطوار. وجدتُ صعوبة في تحمُّل ذلك، على الرغم من أنَّني رجلٌ معتدلُ المزاج. لكنِّي عندما قلتُ للكابتن «اخرس»، كنتُ قد نسيتُ قطعًا أنَّني مجرد إنسانٍ مشردٍ، دون موارد، ورحلتي غير مدفوعة الأجر؛ مجرد عالة واعتمد على سخاء السفينة. وقد ذكّرني القبطان بذلك بعنفٍ شديدٍ؛ لكنني، على أي حال، منعتُ وقوعَ شجارٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(4)

عند درابزين المركب الشراعي

ظهرتْ اليابسة في تلك الليلة بعد غروب الشمس، وانطلق المركب الشراعي نحوها. أشار مونتجمري إلى أنَّ هذه اليابسة هي وجهته. كانت بعيدة جدًّا بحيث لم نتمكَّن من رؤية أي تفاصيل؛ لكنَّها بدتْ لي مجردَ قطعة أرضٍ منخفضة ذات لونٍ أزرق داكنٍ، في البحر الأزرق الرمادي. تصاعد منها خطٌّ عموديٌّ تقريبًا من الدخان إلى السماء. لم يكن القبطان على سطح السفينة عندما شُوهِدت. فبعد أن قام بالتنفيس عن غضبه عليَّ، توجَّه مترنحًا إلى أسفل، وأدركتُ أنَّه ذهب لينام على أرضية مقصورته. تولَّى رفيقه عمليًّا الأمر. كان الشخص الهزيل، قليلَ الكلام، الذي رأيناه عند عجلة القيادة. ويبدو أنَّ مزاجه كان غاضبًا تجاه مونتجمري. لم يعر أيًّا منَّا انتباهه. تناولنا العشاء معه في صمتٍ عابسٍ، بعد جهودٍ غير مجدية من جانبي للحديث. أذهلني أيضًا أنَّ الرجال ينظرون إلى رفيقي وحيواناته بطريقة غير ودِّية على الإطلاق. وجدتُ مونتجمري متحفظًا للغاية حول هدفه مع هذه المخلوقات، وحول وجهته؛ لكنَّني لم أمارس أيَّ ضغطٍ عليه، على الرغم من فضولي المتزايد لمعرفة هدفه ووجهته.

واصلنا حديثَنا على سطح مؤخرة السفينة حتى اكتظت السماء بالنجوم. كان الليل هادئًا للغاية، باستثناء صوتٍ عرضيٍّ في أعلى مقدمة المركب وتنيره إضاءة صفراء، وحركة الحيوانات بين الحين والآخر. جثمت البوما مثل كومة سوداء في ركن قفصها، وهي تراقبنا بأعين لامعة. أخرج مونتجمري بعض السيجار. تحدَّث معي عن لندن بنبرة ذكريات شبه مؤلمة، وسأل جميع أنواع الأسئلة حول التغييرات التي حدثت. كان يتحدَّث كرجلٍ أحب حياته هناك، وانقطع عنه فجأة وبشكلٍ لا رجعة فيه. ثرثرتُ بقدر ما أستطيع عن أشياءٍ عديدة. كانت غرابته تتشكَّل في ذهني طوال الوقت. وخلال حديثي كنت أحدق بوجهه الشاحب الغريب، تحت الضوء الخافت لفانوس صندوق البوصلة خلفي. ثم نظرتُ إلى البحر المظلم، حيث اختفت جزيرته الصغيرة في العتمة.

بدا لي أنَّ هذا الرجل ظهر من الفراغ لمجرد إنقاذ حياتي. وسوف يهبط غدًا على الجزيرة، ويختفي ثانية من حياتي. كان سيشغل تفكيري قليلًا لو قابلته في ظروفٍ عادية، لكنَّه كان في الأساس رجلًا مثقفًا يعيش بمفرده على هذه الجزيرة الصغيرة المجهولة، فضلًا عن الطابع الغريب لأمتعته. وجدتني أكرِّر سؤال القبطان: ماذا يريد من الوحوش؟ لماذا، أيضًا، تظاهر أنَّها ليست له عندما سألته عنها في البداية؟ كما أن مرافقه الشخصي كان من نوعية غريبة، أثارتْ إعجابي جدًّا. ألقتْ هذه الظروف ضبابًا من الغموض حول الرجل؛ شغلتْ مخيلتي، وعقدتْ لساني.

انتهى حديثنا عن لندن نحو منتصف الليل، ووقفنا متجاوريْن نميل على الدرابزين، ونحدق حالمين إلى البحر الصامت، المُضاء بالنجوم، وكلٌّ منَّا مستغرقٌ في أفكاره. كانت حالة من المشاعر، وبدأتُ بالتعبير عن امتناني.

قلتُ بعد فترة: «إن جاز لي القول، أنتَ أنقذت حياتي».

أجاب: «مصادفة، مجرد مصادفة».

«أود أن أشكر من حقَّق هذه المصادفة».

«لا تشكر أحدًا. كان لديكَ احتياجٌ، وأنا لديَّ المعرفة. وقد أعطيتكَ الحقن، وأطعمتك بقدر ما أمكنني. كنتُ أشعر بالملل وأردتُ أن أفعل شيئًا. لو شعرت بالتعب في ذلك اليوم، أو لم

أحب وجهك، حسنًا –يا له من سؤال غريب– أين كنت ستصبح الآن؟!».

أحبط كلامه مزاجي قليلًا. بدأتُ أقول: «على أيِّ حالٍ...».

قاطعني قائلًا: «إنَّها مصادفة، قلتُ لك، مثل كلِّ شيء في حياة الإنسان. الحمقى فقط لا يدركون ذلك! لماذا أنا هنا الآن، منبوذٌ من الحضارة، بدلًا من أن أكون رجلًا سعيدًا يستمتع بكلِّ متعِ لندن؟ ببساطة لأنَّني –منذ أحد عشر عامًا- فقدتُ عقلي لمدة عشر دقائق في ليلة ضبابية».

توقف. قلتُ: «وماذا بعد؟».

«هذا كلُّ شيء».

عُدنا إلى الصمت. ها هو يضحك الآن: «هناك شيءٌ في ضوءِ النجوم يحرِّر لسان المرء. أنا أحمق؛ لكنَّني أود، بطريقة أو بأخرى، أن أخبرك بالأمر».

«سوف أحتفظ لنفسي بأيِّ شيء ستخبرني به، مهما كان. يمكنكَ أن تعتمد على ذلك - إذا كان هذا ما يقلقك».

كان على وشك أن يبدأ في الحديث، ثم هزَّ رأسَه مترددًا.

قلتُ: «لا تقل، فالأمر لن يختلف بالنسبة لي. قبل كل شيء، من الأفضل أن تحتفظ بسرِّك لنفسِك. لن نكسب سوى بعض الراحة إذا احترمت ثقتَك. وإذا لم أفعل...حسنًا؟».

أصدر صوتًا ينمُّ عن تردُّدِه. شعرتُ أنَّني أحرجته، وأثرت تقلُّب مزاجِه. لكنَّني، في الحقيقة، لم أكن مهتمًا بمعرفة ماذا دفع طالب الطبِّ الشاب إلى مغادرة لندن. لديَّ تصوراتي. هززتُ كتفي، وابتعدتُ. كانت هيئة سوداء صامتة تميل على الدرابزين، لمشاهدة النجوم. كان الشخصَ الغريب المرافق لمونتجمري. نظر من فوق كتفه بسرعة مع تحرُّكي، ثم أبعد نظرَه ثانية.

ربما يبدو لكم الأمرُ بسيطًا، لكنَّه جاء كضربة مفاجئة لي. كان فانوسُ عجلة القيادة هو الضوء الوحيد القريب منا. أدار هذا المخلوق وجهه للحظة قصيرة، من عتمة مؤخرة المركب إلى هذا الضوء، فرأيتُ الأعين التي حدَّقت بوجهي تلمع بضوءٍ أخضر شاحبٍ. لم أكن أعرف حينذاك أنَّ هذا اللمعان المائِل إلى الاحمرار ليس غيرَ مألوفٍ، على الأقل، في أعين الإنسان؛ على أنَّني اعتبرته شيئًا غيرَ بشريٍّ على نحوٍ صارخٍ. أذهلتني هذه الهيئة السوداء ذات الأعين النارية، واقتحمتْ أفكاري ومشاعري البالغة، وعادتْ إلى ذهني للحظات أهوالُ الطفولة المنسيَّة. ثم انتهى هذا التأثير، بمثل ما جاء. إنَّها هيئة فظَّة سوداء لرجلٍ، شخص بلا أهمية خاصة، يميل فوق الدرابزين أمام ضوء النجومِ.

وجدت مونتجمري يتحدث معي، قال: «أفكر أن أذهب إلى الداخل لأنام، إذا كنت قد اكتفيت بهذا القدر».

أجبته دون لياقة. نزلنا، وتمنَّى لي ليلة سعيدة عند باب مقصورتي.

راودتني في تلك الليلة أحلامٌ مزعجة. ظهر القمر الخافت متأخرًا. ألقى ضوءه بشعاعٍ شبحيٍّ أبيض على مقصورتي، وصنع شكلًا مشوُومًا على ألواح سريري. ثم استيقظتْ الكلاب وبدأت في العُواء والنُباح. كانت أحلامي متقطعة، ونادرًا ما نمتُ إلى أن اقترب الفجرُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(5)

الرجل الذي ليس لديه مكانٌ يذهب إليه

في الصباح الباكر (وهو اليوم الثاني بعد شفائي، وأعتقد أنَّه الرابع بعد إنقاذي)، أيقظتني سلسلة أحلامٍ عنيفة، أحلام ببنادق، وبصراخ حشود، وأصبحت مدرِكًا لصراخ أجشّ يأتي من فوقي. فركتُ عيني، ومكثتُ راقدًا أستمعُ إلى الضوضاء، مع بعض الشكِّ لفترة قصيرة حول مكان وجودي. ثم فاجأني صوتُ أقدامٍ عارية، وإلقاء أشياء ثقيلة، وصريرٍ عنيفٍ، واهتزاز سلاسل. سمعتُ صوتَ حفيف الماء، مع استدارة السفينة فجأة، وتدفق موجة رغوية باللونين الأصفر والأخضر عبر النافذة الصغيرة المستديرة، ثم ابتعادها. ارتديتُ ملابسي، وتوجهتُ إلى سطح السفينة.

كانت الشمس تشرق وأنا أصعد السلم. رأيتُ القبطانَ، في مواجهة تورد السماء، بظهره العريض وشعره الأحمر، وخلفه تدور البوما وهي مقيدة بحبال الصواري والأشرعة.

بدت البوما البائسة خائفة بشكلٍ فظيعٍ، وجثمتْ على أرضية قفصها الصغير.

صرخ القبطان: «إلى خارج السفينة معهم! إلى خارج السفينة معهم! سرعان ما تصبح السفينة نظيفة بعد أن نتخلَّص منهم جميعًا».

وقف في طريقي. اضطررتُ أن أضغط على كتفه حتى أتمكَّن من الوصول إلى سطح السفينة. استدار ناحيتي بداية، ثم ترنَّح إلى الخلف بضع خطواتٍ ليحدِّق بوجهي. لم أكن بحاجة إلى عينٍ خبيرة لأعرف أنَّ الرجلَ لا يزال مخمورًا.

قال بغباءٍ: «مرحبًا!»؛ ثم أضاف، وعيناه تلمعان: «لماذا يا سيد... سيد؟».

قلتُ: «بريينديك».

قال: «بريينديك الملعون! اخرس،... هذا اسمك. السيد اخرس».

لم يكن من الحكمة الردُّ على هذا الرجل الفظّ، لكنَّني بالتأكيد لم أتوقَّع خطوته التالية. وضع يده على سلَّم السفينة الذي وقف عنده مونتجمري متحدثًا إلى رجلٍ ضخمٍ، رمادي الشعر، يرتدي بنطالًا قذِرًا أزرق اللون، ويبدو أنَّه صعد على متن السفينة للتو.

صاح القبطان: «من هنا يا سيد اخرس الملعون! من هنا!».

استدار مونتجمري ورفيقه عندما سمعاه يتحدَّث.

قلتُ: «ماذا تعني؟».

«من هذا الطريق، يا سيد اخرس الملعون، هذا ما أعنيه! إلى خارج السفينة يا سيد إخرس خارجها تمامًا! نحن ننظف السفينة المباركة كلها؛ وعليك أن تنزل منها!».

حدَّقتُ إليه في ذهولٍ. ثم خطر لي أنَّ هذا بالضبط ما أردته. فلا مكان للحزن على ضياع فرصة رحلتي كراكبٍ وحيدٍ مع هذا القبطان السكير العدواني. استدرتُ نحو مونتجمري.

قال رفيق مونتجمري بإيجازٍ: «لا يمكننا اصطحابك معنا».

قلتُ مذعورًا: «لا يمكنكم اصطحابي معكما!». كان وجهه أكثر وجه صارمٍ وحازمٍ وقعت عليه عيناي.

استدرتُ نحو القبطان، وبدأتُ أتكلَّم: «اسمع...».

قاطعني القبطان: «انزل من على متن السفينة! لم تعُد هذه السفينة للوحوش، وآكلي لحوم البشر، والأسوأ منهم. عليك أن تنزل يا سيد اخرس. إذا لم يصطحباك، عليك أن تذهب إلى البحر. ويمكنك، على أي حالٍ، أن تذهب... مع أصدقائك. لقد انتهيت من هذه الجزيرة المباركة إلى الأبد، آمين! لقد اكتفيت».

قلت برجاءٍ: «ولكن، مونتجمري».

لوى شفتَه السفلى، وأومأ برأسه يائسًا إلى الرجل رمادي الشعر الواقف بجانبه، للإشارة إلى عجزه عن مساعدتي.

قال القبطان: «سأنظر الآن في هذا الأمر».

بدأتْ مشاجرة غريبة ثلاثية الأطراف. ناشدت الرجال الثلاثة بالتناوب، واحدًا بعد الآخر. توجهتُ بداية إلى الرجل ذي الشعر الرمادي ليسمح لي بالنزول إلى اليابسة، ثم إلى القبطان المخمور ليبقيني على متن المركب. وتوجهتُ بتوسلاتي حتى إلى البحَّارة. لم يقل مونتجمري كلمة واحدة، بل اكتفى بهزِّ رأسه. كرَّر القبطان عبارته: «سوف تغادر المركب، قلتُ لكَ. اللعنة على القانون! أنا الملك هنا». وفي النهاية، يجب أن أعترف أنَّني فقدتُ صوتي فجأة وسط تهديدٍ قويٍّ. شعرتُ بعاصفة من الهستيريا، وذهبتُ إلى مؤخرة السفينة محدقًا بفزعٍ إلى لا شيء.

وفي الوقت نفسه، بدأ البحَّارة ينتهون بسرعة من مهمة تفريغ المركب من الطرود وأقفاص الحيوانات. رأيتُ زورقًا بخاريًّا كبيرًا بمقبضين دائمين، يوجد أسفل المركب الشراعي؛ وتتأرجح داخله مجموعة متنوعة وغريبة من السلع. لم أرَ حينذاك الأيدي القادمة من الجزيرة لتتلقَّى الطرود؛ إذ كان جانب المركب الشراعي يخفي جسم الزورق عني. لم ينتبه مونتجمري ولا رفيقه لوجودي على الإطلاق، بل انشغلا في مساعدة وتوجيه البحَّارة الأربعة أو الخمسة الذين يتولَّون تفريغ السلع. ذهب إليهم القبطان بغيَّة التدخُّل وليس المساعدة. كانت مشاعري تتقلَّب بين اليأس والتهوُّر. وخلال وقوفي انتظارًا لانتهاء تلك العملية، لم استطع مرَّة أو مرتين مقاومة الدافع للضحك على مأزقي البائس. شعرتُ بالهُزال لعدم تناولي وجبة الإفطار؛ فالجوع وفقر الدم يسلبان الرجل رجولة. أدركتُ بوضوحٍ أنَّني لم أكن قادرًا على مقاومة ما اختار الكابتن القيام به لطردي، أو إجبار مونتجمري ورفيقه على اصطحابي. ولذلك انتظرتُ مصيري بشكلٍ سلبيٍّ. سارتْ عملية نقل ممتلكات مونتجمري إلى الزورق كما لو أنَّني غير موجودٍ.

انتهى العمل الآن، وآن أوان الكفاح. أخذوا يسحبونني إلى سُلَّم المركب، وكانت مقاومتي ضعيفة. لاحظتُ عندئذٍ غرابة الوجوه البنيَّة للرجال الذين كانوا مع مونتجمري في الزورق. كان الزورق مُحمَّلًا بالكامل الآن، ودُفِع على عجلٍ. ظهرتْ أسفل مني فجوة واسعة من المياه الخضراء، دفعتُ نفسي إلى الخلف بكلِّ ما لديَّ من قوة لتجنُّب السقوط بتهورٍ. تصايح بحارة الزورق بسخرية، وسمعتُ مونتجمري يلعنهم. دفعني القبطان ورفيقة وأحد البحارة لمساعدته، نحو مؤخرة المركب.

كان زورق نجاة السفينة «ليدي فين» مقطورًا في الخلف؛ نصفه ممتلئ بالماء، ومن دون مجاديف، وفارغٌ تمامًا من المؤن. رفضتُ الصعود على متنه، وألقيتُ بكامل طولي على سطح السفينة. وفي النهاية، أنزلوني إليه بحبلٍ (فلا يوجد سُلَّم فيِ مؤخرة سفينتهم)، ثم قطعوا الحبل وتركوني في البحر على غير هدى. انجرفتُ ببطءٍ بعيدًا عن المركب الشراعي. شاهدتُ مذهولًا جميع الأيدي تمسك بحِبال الأشرعة والصواري، ثم استدار المركب ببطءٍ

وإنَّما بثباتٍ في اتجاه الريح. رفرفتْ الأشرعة، ثم انتفختْ عند هبوب الرياح نحوها. نظرتُ إلى جانبها، الذي أبلَته العوامل الجوية، وهو يميل بحدَّة نحوي، ثم ابتعدتْ عن نطاق بصري.

لم أدرْ رأسي لأتبعها. كنتُ في البداية أصدِّق بالكاد ما حدث. جثمتُ في أرضية زورق النجاة مذهولًا ومحدقًا بالبحر الخالي الذي يلوِّثه الزيت. ثم أدركتُ أنَّني عُدت إلى ذلك الجحيم ثانية، نصف غارقٍ الآن. نظرتُ خلفي إلى الحافة العليا للزورق، ورأيتُ المركب الشراعي يقف بعيدًا والقبطان أحمر الشعر يسخر مني وهو يميل على الدرابزين. حوَّلتُ بصري نحو الجزيرة، ورأيتُ حجم الزورق البخاري يقل مع اقترابه من الشاطئ.

اتضحتْ أمامي فجأة قسوة هذا الهجر. لم يكن لديَّ أيٌّ وسيلة للوصول إلى اليابسة، إلَّا إذا أُتيحت لي فرصة الانجراف هناك. عليك أن تتذكر أنَّني كنتُ ضعيفًا من جراء ما تعرضتُ له في القارب؛ كنتُ جائعًا ومتعبًا للغاية، أو ربما كان يجب أن أتمتَّع بمزيدٍ من الشجاعة. ونظرًا لحالتي، بدأتُ فجأة في البكاء والنحيب، على نحوٍ لم أفعله منذ أن كنتُ طفلًا صغيرًا. انهمرتْ الدموع على وجهي. وفي لحظة يأسٍ، ضربتُ بقبضتي المياه أرضية الزورق، وركلتُ حافة الزورق العليا بوحشية. صلَّيتُ بصوتٍ عالٍ، وطلبتُ من الربِّ أن يتركني أموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(6)

البحَّارة قبيحو المظهر

رأى سكان الجزيرة كيف يجرفني البحرُ على غيرِ هدى، وأشفقوا عليَّ. انجرفتُ ببطءٍ شديدٍ إلى الشرق، مقترِبًا من الجزيرة بشكلٍ مائلٍ؛ ثم رأيتُ، مع شعورٍ هستيريٍّ بالارتياح، أنَّ الزورق البخاري يستدير عائدًا نحوي. كانت حمولته ثقيلة. ومع اقترابه، أمكنني رؤية رفيق مونتجمري بشعره الأبيض وكتفيه العريضين يجلس محشورًا مع الكلاب والعديدِ من صناديق التعبئة عند أغطية مؤخرة الزورق. ظلَّ رجلٌ يحدِّق إليَّ بثباتٍ دون أن يتحرَّك أو يتحدَّث. كان الكسيح أسود الوجه ينظر في اتجاهي بثباتٍ عند المقدمة بالقرب من البوما. كان بجواره ثلاثة رجال آخرين، ثلاثة زملاء مظهرهم غريبٌ ومتوحشٌ، وكلاب الصيد تزمجر تجاههم بوحشية. أحضر مونتجمري الزورق بجانبي، حيث كان يقوده؛ أمسك بحبلِ توثيق قاربي وقام بتثبيته في ذراع المقود ليجرَّني، نظرًا لعدم وجود مكانٍ لي على متن زورقه.

كنتُ قد تعافيت من مرحلتي الهستيرية، وأجبتَ نداءه بشجاعة كافية وهو يقترب مني. أخبرته أنَّ زورق النجاة على وشك أن تغمره المياه، فقذف لي بدلوٍ خشبيٍّ. اهتزَّ جسمي وهو يشدُّ الحبل بين القاربين. انشغلتُ قليلًا في إحكام ربط الحبل.

لم أتمكَّن من إلقاء نظرة أخرى على ركَّاب المركب إلَّا بعد أن أزحت المياه (حيث أصبح القارب مناسبًا تمامًا).

لا يزال الرجل أبيض الشعر ينظر نحوي بثباتٍ، وإنما بتعبيرٍ، أتخيَّل الآن، أنَّه ينمُّ عن الحيرة. عندما التقتْ عيني بعينه، نظر إلى أسفل نحو الكلب الذي يجلس بين ركبتيه. كان رجلًا قويَّ البنية، كما سبق وقلت، جبهته رفيعة وملامحة حادة نوعًا؛ لكنَّ جلد عينيه كان يتدلَّى بشكلٍ غريبٍ فوق جفنيه، وهو ما يحدث غالبًا مع التقدُّم في العُمر؛ أما تدلِّي فمه الضخم عند الجانبين، فقد أعطاه تعبيرًا ينمُّ عن الولع بالمشاكسة. تحدث الرجل إلى مونتجمري بصوتٍ خفيضٍ، بحيث لم أتمكَّن من سماعه.

انتقلت عيناي منه إلى رجاله الثلاثة؛ ويا لهم من طاقمٍ غريبٍ. لم أرَ سوى وجوههم، وكان فيها شيءٌ –لا أعرف ما هو– أشعرني باشمئزازٍ غريبٍ. نظرتُ إليهم بثباتٍ، ولم ينمحِ انطباعي؛ على الرغم من أنَّني فشلتُ في معرفة سببه. بدتْ بشرتُهم سمراء؛ لكنَّ أطرافَهم كانت مغطَّاة بشكلٍ غريبٍ بأقمشة خفيفة بيضاء وقذِرة، تصل حتى إلى الأصابع والأقدام: لم يسبق لي أن رأيت رجالًا ملفوفين بالقماش بهذا الشكل، ولا حتى نساء إلا في الشرق. كانوا يرتدون عمائمَ أيضًا، وتطلُّ أسفلها وجوههم المشوَّهة (وجوهٌ ذات فكَّين سفليين بارزين وعينين لامعتين)، كان شعرهم خفيفًا وأسود اللون، يشبه شعر الحصان؛ وبدت قامتهم وهم جالسون تفوق قامة أي عِرق بشري رأيته. أمَّا الرجل ذو الشعر الأبيض، الذي كنتُ أعرف أنَّ طوله ستة أقدام، فقد كان رأسه وهو جالسٌ ينخفض عن رأس أيٍّ من الثلاثة. اكتشفتُ لاحقًا أنَّ أيًّا منهم لم يكن بالفعل أطول مني؛ لكنَّ أجسادَهم كانت طويلة بشكلٍ غير طبيعيٍّ، وجزء الفخذ من الساق كان قصيرًا وملتويًا بغرابة. على أيِّ حالٍ، كانوا مجموعة قبيحة بشكلٍ يثير الدهشة. وفوق رؤوسهم، تحت المقبضِ الأمامي، أطلَّ الوجه الأسود للرجل الذي كانت عيناه تلمع في الظلام. عندما نظرتُ محدقًا بهم، التقتْ نظراتنا؛ ثم أدار أحدُهم بصرَه عن نظرتي المحدقة المباشرة، وتلاه الثاني، ونظرا نحوي بطريقة غريبة وماكرة. خطر ببالي أنَّني ربما أزعجتهم؛ فحوَّلتُ انتباهي إلى الجزيرة التي كنَّا نقترب منها.

كانت الجزيرة منخفضة، ومُغطَّاة بنباتاتٍ كثيفة -أساسًا نوعٌ من النخيل، كان جديدًا بالنسبة لي- تصاعد، من موقعٍ على الجزيرة، خيطٌ أبيض رفيعٌ من البخار بشكلٍ مائلٍ إلى ارتفاعٍ هائلٍ، ثم تبدَّد مثل ريشِ الزغبِ. نحن الآن في أحضان خليجٍ واسعٍ، يحيط به من جميع الجوانب نتوءٌ منخفضٌ. كانت رمال الشاطئ رمادية باهتة. كما يوجد بالشاطئِ قمَّة جبليَّة، ربما يصل ارتفاعها إلى ستين أو سبعين قدمٍ فوق مستوى سطح البحر، فضلًا عن أشجارٍ وشجيراتٍ متشابكة تتناثر دونما انتظام. وتوجد في منتصف الطريق، في اتجاهِ أعلى المنحدر، حظيرة مُربَّعة الشكل من الحجر الرمادي، عرفتُ لاحقًا أنَّها بُنيت جزئيًّا من المرجان وجزئيًّا من الصخور الزجاجية البركانية الخفيفة. ويبرز سقفان من القشِّ من داخل هذه الحظيرة. وقف رجلٌ ينتظرنا عند حافة الماء. وبينما كنَّا لا نزال بعيدين عن الشاطئ، تخيَّلتُ رؤية بعض المخلوقات الأخرى البشعة تعدو بين الأشجار على المنحدر؛ على أنَّني لم أرَ شيئًا من هذا ونحن نقترب. كان الرجل الذي ينتظرنا معتدلَ الحجمِ، ووجهه زنجيٌّ أسود؛ فمه كبير، شبه خالٍ من الشفاه، وذراعاه نحيلتان على نحوٍ فريدٍ، وأقدامه رفيعة وطويلة، وساقاه مقوَّستان. وقف يدفع بوجهه الكبير إلى الأمام، محدقًا إلينا. كان يرتدي، مثل مونتجمري ورفيقه أبيض الشعر، سترة وسروالًا من الصوف الأزرق. ومع اقترابنا، بدأ هذا الشخص يركض جيئة وذهابًا على الشاطئ، ويصنع أكثر الحركات بشاعة.

أصدر مونتجمري أوامره؛ فنهض الرجال الأربعة في الزورق البخاري، وبإيماءاتٍ غريبة وفريدة من نوعها قاموا بفكِّ المقابض. قادنا مونتجمري إلى رصيفِ مرسى صغيرٍ ضيقٍ، محفورٍ في الشاطئ. أسرع نحونا الرجل الواقف على الشاطئ. هذا الرصيف، كما أُسميه، كان في الحقيقة مجردَ خندقٍ طويلٍ بما يكفي في هذه المرحلة لاستيعاب القارب الطويل. سمعتُ مقدمة الزورق ترتطم بالرمال، فدفعتُ زورق النجاة بعيدًا عن دفة القارب الكبير باستخدام الدلو الخشبي، وفككتُ حبلَ توثيق المركب، ثم نزلتُ. انطلق الرجال الثلاثة الملفوفين بالأقمشة نحو الرمال بحركاتٍ خرقاء، وشرعوا على الفور في إنزال الحمولة بمساعدة الرجل على الشاطئ. لقد أذهلتني بوجهٍ خاصٍ الحركاتُ الغريبة لسيقان البحارة الثلاثة المُغطّين بالضمادات؛ لم تكن متيَبِّسة، لكنَّها مُشوَّهة بشكلٍ غريبٍ، كأنَّما موصولة في غير مواضعها الصحيحة. لا تزال الكلاب مستمرَّة في الزمجرة، ومتوترة في السلاسل التي تقيِّدها وهي تسير وراء هؤلاء الرجال، بعد أن هبط بهم الرجل أبيض الشعر. تحدَّث الزملاء الثلاثة كِبار الحجم مع بعضهم بأصواتٍ غريبة تصدر من حناجرهم، وبدأ الرجل الذي انتظرنا على الشاطئ يثرثر معهم بحماسٍ –تخيَّلتُ أنَّها لغة أجنبية- وهم يضعون أيديهم على بعض البالات المكدَّسة بالقرب من مؤخرة القارب. لقد سمعتُ مثل هذا الصوت من قبل، لكنَّني لا أتذكر أين سمعته. وقف الرجل ذو الشعر الأبيض، ممسكًا ستة كلاب في حالة من الاضطراب، وهو يلقي عليهم أوامره بصوتٍ عالٍ يعلو على صوت ضجيجهم. هبط مونتجمري بعد أن اطمأنَّ إلى نزول الجميع، وانشغلتْ المجموعة في تفريغ الحمولة. كنتُ أضعف من أن أقدِّم يدَ المساعدة؛ مع صيامي الطويل، والشمس تضرب على رأسي العاري.

بدا الآن أنَّ الرجلَ ذا الشعر الأبيض يتذكَّر وجودي، وجاء نحوي.

قال: «تبدو وكأنَّك لم تتناول الإفطار». كانت عيناه الصغيرتان سوداءَ لامعةً تحت حاجبيه الثقيلين. «يجب أن أعتذر عن ذلك. فأنتَ ضيفُنا الآن ويجب أن نسهر على راحتك، على الرغمِ من أنَّك غيرُ مدعوٍّ، كما تعرف». نظر باهتمامٍ إلى وجهي. «يقول مونتجمري إنَّك رجلٌ مثقفٌ، سيد بريندِيك؛ كما يقول إنَّ لديك معرفةً بالعلم. هل لي أن أسألكَ عن ذلك؟».

أخبرته أنَّني أمضيت بعض السنوات في الكلية الملكية للعلوم، وقمتُ ببعض الأبحاث في علم الأحياء تحت إشراف هكسلي. وعندئذٍ رفع حاجبيه قليلًا.

قال، بطريقة تنمُّ على الاحترام: «هذا يغيِّر الوضعَ بعض الشيء، سيد بريندِيك. تخصُّصنا

هنا هو علم الأحياء. فهذه محطة بيولوجية من نوعٍ ما». استقرَّتْ عيناه على الرجال ذوي الأردية البيضاء المنشغلين في نقل البوما، باستخدام بكراتٍ، نحو الفناء المسوّر. ثم أضاف: «أنا ومونتجمري على الأقل. لا أعرف متى يمكنكَ الرحيل من هنا. نحن خارج المسار إلى أي مكانٍ. ونرى سفينة مرة واحدة في السنة أو نحو ذلك».

تركني فجأة، وصعد الشاطئ متجاوزًا المجموعة، وأعتقد أنَّه دخل الحظيرة. كان الرجلان الآخران مع مونتجمري، يضعان كومة من الطرود الصغيرة على عربة نقلٍ ذات عجلاتٍ منخفضة. كانت اللاما لا تزال على الزورق البخاري مع أقفاص الأرانب؛ والكلاب لا تزال مقيَّدة بمقاعد التجديف. اكتملت كومة الأشياء، وأمسك الرجال الثلاثة بالعربة، وبدأوا في دفع الحمولة الثقيلة التي ربما يصل وزنُها إلى طنٍ أو نحو ذلك، خلف البوما. تركهم مونتجمري الآن، وجاء إليَّ وهو يمدُّ يده.

قال: «أنا سعيدٌ، من جهتي. كان ذلك الكابتن أحمقَ سخيفًا. كنتَ ستواجه بسببه العديدَ من المشاكل».

قلتُ: «أنتَ الذي أنقذتني مرَّة أخرى».

«هذا يعتمد. ستجد أنَّ هذه الجزيرة مكانٌ عجيبٌ جهنميٌّ. أعدُكَ بذلك. لو كنُت مكانكَ، لانتبهت لأموري جيِّدًا. إنه هو...». تردَّد، وبدا أنَّه يغيِّر رأيه حول ما كان على وشك قوله. ثم قال: «أتمنَّى أن تساعدني مع هذه الأرانب».

كان ما يقوم به من إجراءاتٍ مع الأرانب فريدًا من نوعه. دخلتُ معه، وساعدته على جرِّ أحد الأقفاص إلى الشاطئ. وبعدها فتح باب القفص وأماله على إحدى طرفيه، ليُخرِج محتوياته الحية على الأرض. سقطتْ الأرانب مكدَّسة في كومة، واحدًا فوق الآخر. صفَّق بيديه، وعلى الفور انطلقتْ تجري قافزة إلى الشاطئ، أعتقد كانوا خمسة عشر أو عشرين.

قال مونتجمري: تزايدوا وتكاثروا، يا أصدقائي. فلتسدُّوا النقص في الجزيرة؛ نفتقر الآن إلى اللحوم.

وبينما كنتُ أشاهد الأرانب تركض وتختفي، عاد الرجل أبيض الشعر ومعه قارورة براندي وبعض البسكويت. وقال بنبرة أكثر ألفة مما سبق: «هذا شيءٌ يساعدك على الاستمرار، يا بريديك». لم أُثِرْ أيَّ ضجة، بل شرعتُ على الفور في تناول البسكويت، بينما قام الرجل أبيض الشعر بمساعدة مونتجمري في إطلاق سراح عددٍ أكبر من الأرانب آخرين. بيد أن ثلاثة أقفاصٍ كبيرة صعدتْ إلى المنزل ومعهم البوما. لم أقرُب البراندي؛ لأنَّني ممتنعٌ عن المُسكِرات منذ ولادتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(7)

الباب المُغلَق

ربما سيدرك القارئ أنَّ كلَّ شيءٍ حولي كان غريبًا جدًّا في البداية، ولم يكن موقفي سوى نتيجة هذه المغامرات غير المتوقعة؛ لدرجة أنَّني لم استطع تفهُّم تلك الغرابة النسبية لهذا الشيء أو ذاك. تابعت اللاما حتى الشاطئ. لحِق بي مونتجمري، وطلب مني عدمَ دخول الحظيرة الحجرية. لاحظتُ بعد ذلك أنَّ البوما في قفصِها، وأنَّ كومة الطرودِ قد وُضِعت خارج مدخل هذه الحظيرة رباعية الزوايا.

استدرتُ، ورأيتُ الزورق وقد انتهى تفريغه تمامًا وأصبح خاليًا مرة أخرى، ويسحبونه إلى الشاطئ. سار الرجل أبيض الشعر نحونا. وخاطب مونتجمري.

«والآن تأتي مشكلة هذا الضيف غير المدعو. ماذا سنفعل معه؟».

قال مونتجمري: «إن لديه معرفة بالعلم».

أجاب الرجل أبيض الشعر، وهو يومئ نحو الحظيرة: «أنا متلهِّفٌ إلى العمل مرة أخرى بهذه الاشياء الجديدة»، وزاد لمعان عينيه.

قال مونتجمري بلهجة غير ودية: «أجرؤ على القول إنَّني متأكدٌ من ذلك».

«لا يمكننا إرساله إلى هناك، وليس لدينا وقتٌ لبناء كوخ جديدٍ له. وبالتأكيد لا يمكن أن نثق فيه بعد».

قلتُ: «أنا تحت أمرِك». لم تكن لديَّ أيُّ فكرة عمَّا يقصده بكلمة «هناك».

أجاب مونتجمري: «كنتُ أفكر في الشيء نفسِه. توجد غرفتي ذات بابٍ خارجي...».

أسرع الرجل الأكبر سنًا بقوله على الفور: «هذا كلُّ شيءٍ»، وهو يحوِّل بصرَه نحو مونتجمري. ذهب ثلاثتنا إلى الحظيرة: «أعتذر لكَ، سيد بريندِيك، على هذه السِرية؛ لكن عليك أن تتذكر أنَّك غيرُ مدعو. تضم مؤسستنا هنا سرًّا ما، نوعًا من غرفة الرعب. لا شيء مخيفٌ بالفعل لرجلٍ عاقلٍ، لكنَّنا لا نعرفكَ حتى الآن...».

«بالتأكيد»، قلتُ، «لستُ أحمقَ لأشعر بالإهانة لعدم ثقتِكم بي بعد».

لوى فمه الكبير في ابتسامة باهتة (كان واحدًا من هؤلاء الكئيبين الذين يتدلَّى جانبا فمهم عندما يبتسمون)، وانحنى إعرابًا عن تقديره لكياستي. دلفنا من مدخل الحظيرة الرئيس: بوابة خشبية ثقيلة، ذات إطارٍ حديديٍّ وموصدة، تتكدَّس خارجها حمولة الزورق. وصلنا عند الزاوية إلى مدخلٍ صغيرٍ لم أكن قد لاحظته من قبل. أخرج الرجل أبيض الشعر حُزمة من المفاتيح من جيب سترته الزرقاء المزيتة، ثم فتح هذا الباب ودخل. أدهشتني مفاتيحه، وكذا إغلاق المكان بإحكامٍ، رغم أنَّه تحت نظره. تبعته، ووجدتني في شقة صغيرة، مفروشة بشكلٍ بسيطٍ وإن كانت مريحة، وبابُها الداخلي، الموارب قليلًا، يفتح على فناءٍ مرصوفٍ. أغلق مونتجمري الباب الداخلي على الفور. رأيتُ أرجوحة متدلية عند الزاويةِ المظلمة من الغرفة، فضلًا عن نافذة صغيرة بلا زجاجٍ، يحميها قضيبٌ حديديٌّ، وتطلُّ على البحر.

أخبرني الرجل أبيض الشعر أنَّها شقتي؛ وأنَّ البابَ الداخلي يُقفَل من الجانب الآخر «خوفًا من الحوادث»، كما قال، وبالتالي فهو بمثابة حدودي الداخلية. كما لفت انتباهي إلى كرسيٍّ مريحٍ قابل للطي أمام النافذة، وإلى مجموعة من الكتب القديمة على رفٍّ بالقرب من

الأرجوحة، وقد وجدتها في الأساس كتبًا في مجال الجراحة، وطبعات من النسخ الكلاسيكية اللاتينية واليونانية (لغات لا أستطيع أن أقرأها بسهولة). غادر الغرفة من الباب الخارجي، كأنما ليتجنب فتح الباب الداخلي ثانية.

«نتناول طعامنا هنا عادة»، قال مونتجمري، ثم خرج مرتابًا وراء الرجل الآخر. سمعته ينادي: «مورو!»، وللحظة تصورتُ أنَّني لم ألحظ ذلك حينذاك. على أنَّني عندما بدأتُ أقلِّب في الكتب على الرفِّ، تنبهتُ: أين سمعت اسم مورو من قبل؟ جلستُ أمام النافذة، وأخرجتُ البسكويت المتبقي، والتهمته بشهية ممتازة. مورو!

رأيتُ من خلال النافذة أحدَ هؤلاء الرجال الغريبين، في أربطته البيضاء، يجرُّ صندوقَ تعبئة على طول الشاطئ. أخفاه إطار النافذة عني الآن؛ ثم سمعتُ صوتَ إدخال مفتاح في القفل خلفي كما سمعتُ حركة المفتاح. وبعد فترة قصيرة سمعتُ من خلال الباب المغلق ضجيجَ الكلاب، التي أحضروها الآن من الشاطئ. لم تكن الكلاب تنبح، بل تشمُّ وتزمجر بطريقة غريبة. تمكَّنتُ من سماع وقع أقدامهم السريعة، وصوت مونتجمري يهدئهم.

تعجبتُ كثيرًا لهذه السرية المُتقنة التي يحيط بها هذان الرجلان محتويات المكان، وشغلني التفكير في الأمر لفترة، وفي الألفة الغريبة التي أشعر بها تجاه اسم مورو. لكنَّ الذاكرة البشرية غريبة بالفعل؛ فلم أستطع حينذاك أن أتذكر علاقة هذا الاسم المشهور بصاحبه. ثم انتقلتْ أفكاري إلى الغرابة الشديدة، التي يصعب تحديدها، لهذا الرجل المشوَّه على الشاطئ. لم أشهد من قبل مثل هذه المشية، ومثل هذه الحركات الغريبة، وهو يجرُّ الصندوق. تذكرت عدم تحدُّث أيٍّ من هؤلاء الرجال معي، على الرغم من أن معظمهم يحدِّق بوجهي، بين الحين والآخر، بطريقة خفيَّة وغريبة، على العكس تمامًا من التحديق الصريح الذي يمارسه أيُّ فظٍّ ساذجٍ. وفي الواقع، كانوا جميعًا يبدون صموتين على نحوٍ ملحوظٍ؛ وعندما يتحدثون، يطلقون أصواتًا شديدة الغرابة. تُرى ما مشكلتهم؟ ثم تذكرتُ أعين مرافق مونتجمري الغليظ.

جاء، بينما كنتُ أفكر فيه. كان يرتدي ملابسَ بيضاء، ويحمل صينية تضم قهوة وبعض الخضراوات المسلوقة. لم أستطع منع نفسي من نفورٍ مرتجفٍ عندما دخل، وانحنى بشكلٍ وديٍّ، ووضع الصينية أمامي على الطاولة. ثم شلَّتني الدهشة ما أن رأيت أذنه، أسفل خصلات شعرة السوداء الخشنة؛ إذ قفزت فجأة بالقرب من وجهي. كانت أذناه مدببتين، ويغطيهما فراءٌ بنيٌّ ناعمٌ.

قال: «فطوركَ يا سيدي».

حدَّقتُ بوجهه دون محاولة الرد عليه. استدار وذهب نحو الباب، وهو ينظر نحوي بشكلٍ غريبٍ من فوق كتفه. تابعته بعيني، وهنا حدثتْ إحدى خدع اللاوعي الغريبة، إذ قفزتْ إلى ذهني عبارة، «أحوال مورو»... هل كانت هكذا؟ «...مورو»، آه! لقد أعاد ذاكرتي إلى الوراء عشر سنوات. إنَّها «أهوال مورو!»، تدفقتْ العبارة فضفاضة في ذهني للحظة، ثم رأيتها بحروفٍ حمراء على كتيبٍ صغيرٍ برتقالي اللون، وكانت قراءته تثير الرجفة. ثم تذكرتُ بوضوحٍ كلَّ شيء. استرجع ذهني بحيوية مذهلة هذا الكتيِّب المنسي منذ فترة طويلة. كنتُ مجردَ فتى في ذلك الوقت، وكان مورو، على ما أعتقد، في حوالي الخمسين من عمره؛ وهو عالِم فسيولوجي بارزٌ وبارعٌ، ومعروفٌ في الأوساط العلمية لخياله غير العادي وصراحته الوحشية في المناقشة.

هل هذا الشخص هو مورو نفسه؟ كان قد نشر بعض الحقائق المدهشة المتعلقة بنقل الدم، فضلًا عن أنَّه كان معروفًا بقيامه بعملٍ مُهمٍ حول النمو المَرَضي. وفجأة انتهتْ حياته المهنية، وكان عليه أن يغادر إنجلترا. فقد تمكَّن صحفيٌّ من النفاذ إلى مختبره بصفة

مساعد في أعمال المختبر، بقصد نشر قصة مثيرة. وبمساعدة حادثٍ مروّعٍ (إن كان حادثًا)، صدر كتيبه الشنيع سيئ السمعة. وفي يوم صدوره، هرب كلبٌ بائسٌ، مسلوخٌ ومشوَّهٌ، من منزل مورو. حدث ذلك في فترة سخيفة، حيث ناشد محرِّر بارز -وهو ابن عم المساعد المؤقت في أعمال المختبر- ضمير الأمة. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ينقلب فيها الضمير ضد أساليب البحث. وطُرِد الطبيب ببساطة إلى خارج البلد. ربما كان يستحق ذلك؛ إلَّا أنَّني لا زلت أعتقد أن ضعف دعم زملائه الباحثين، وتخلِّي جماعة كبيرة من مجتمع العلميين عنه، كان شيئًا مخزيًا. على أنَّ بعضَ تجاربه، حسب رواية الصحفي، كانت قاسية وتعسفية. وربما يكون قد اشترى سلامته الاجتماعية بالتخلي عن أبحاثه؛ لكن الواضح أنَّه كان يفضِّل أبحاثه، مثله مثل معظم الرجال الذين سقطوا ذات يومٍ تحت لعنة الإفراط في البحث. لم يكن متزوجًا، ولم يهتم في الواقع سوى بأبحاثه.

شعرتُ باقتناع بأنه الرجل نفسه؛ إذ كان كلُّ شيء يشير إلى ذلك. وأدركتُ سبب إحضار البوما والحيوانات الأخرى -التي أدخلوها الآن، مع الأمتعة الأخرى، إلى الحظيرة خلف المنزل. كما بدأت أفكر فجأة في تلك الرائحة الخافتة الغريبة، رائحة شيء مألوف، التي كنتُ أشعر بها. إنها رائحة تطهير غرفة التشريح. سمعتُ عبر الجدر هدير البوما، ونباح أحد الكلاب كما لو أنَّه مُصابٌ. لكن المؤكد، لا سيما بالنسبة إلى رجلٍ علميٍّ آخر، لا يوجد شيءٌ مروعٌ في تشريح الحيوانات الحية يستدعي هذه السرية. وبقفزة غريبة في ذهني، عادت إلى ذاكرتي بوضوحٍ شديدٍ أذنا مرافق مونتجمري المدببة وعيناه اللامعتان. حدَّقت أمامي بالبحر الأخضر، مُزبدًا تحت نسيم منعش، وأتاحت لهذه وغيرها من الذكريات الغريبة عن الأيام القليلة الماضية أن تطارد بعضها بعضًا في ذهني.

ماذا يمكن أن يعني ذلك كله؟ حظيرة مغلقة على جزيرة وحيدة، وجراح تشريح حيوانات حية سيئ السمعة، وهؤلاء الرجال المشلولون والمشوَّهون؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(8)

صراخ البوما

قاطع مونتجمري تفكيري المشوَّش من الغموض والشكِّ قرابة الساعة الواحدة، وتبِعه رفيقه البشع حاملًا صينية بها خبزٌ، وبعض الأعشاب، وغيرها من المواد الغذائية، علاوة على قارورة من الويسكي، وإبريقٍ من الماء، وثلاثة أكواب وسكاكين. نظرتُ بارتيابٍ إلى هذا المخلوق الغريب، ووجدته يراقبني بعينيه الشاذَّتين القلقتين. قال مونتجمري إنَّه سيتناول غداءه معي، لكنَّ مورو كان شديد الانشغال ببعض الأعمال القادمة.

قلت: «مورو! أنا أعرف هذا الاسم».

قال: «أتعرفه! يا لحماقتي أن ذكرته أمامك! كان يجب أن أفكر. على أيِّ حالٍ، سوف يعطيك ذلك فكرة على أسرارنا. ويسكي؟».

«لا، شكرًا، أنا ممتنع عن المُسكِرات».

«ليتنى كنتُ مثلكَ. وإنَّما ما من جدوى الآن. فقد كانت تلك المُسكِرات الشيطانية هي التي أدَّتْ إلى مجيئي هنا،... هي، وليلة ضبابية. تصوَّرتُ حينذاكَ أنَّني محظوظٌ، عندما عرض مورو أن يُخرجني. إنَّه لمن الغريب...».

«مونتجمري»، قلت فجأة مع إغلاق الباب الخارجي، «لماذا أذنا رفيقك مدببتان؟».

قال وهو يتناول أوَّل قطعة طعامٍ: «اللعنة!». ظلَّ يحدِّق إليَّ للحظات، ثم كرَّر: «أذنان مدببتان؟»

قلتُ بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الهدوء، حابسًا أنفاسي: «نعم، مدببتان قليلًا، وحوافهما مغطاة بفراءٍ أسود ناعمٍ».

صبَّ لنفسه ويسكي وماءً بتأنٍ شديدٍ. «كان لديَّ انطباعٌ أنَّ شعرَه يغطي أذنيه».

«رأيتُ أذنيه وهو ينحني أمامي ليضع على الطاولة القهوة التي أرسلتها لي. كما أن عينيه تلمعان في الظلام».

أفاق مونتجمري الآن من مفاجأة سؤالي. وقال عن عمدٍ، بلثغته المعتادة: «كنتُ أعتقد دائمًا أن هناك شيئًا يتعلَّق بأذنيه، من طريقة تغطيته لهما. ما شكلهما؟».

اقتنعتُ من طريقة حديثه أنَّه كان يتظاهر هذا الجهل. لكنَّني لا أستطيع إخباره بأنَّني أعتقد أنَّه كاذبٌ. قلتُ: «مدببتان، وصغيرتان نوعًا ما، ويغطيهما الفراء بوضوحٍ. لكنَّ الرجل في مجمله هو أحد أغرب الكائنات التي وقعت عليها عيناي من قبل».

صدرتْ من الحظيرة خلفنا صرخة حادة بصوتٍ غليظٍ ينمُّ عن حيوانٍ يتألَّم. شهِد عمقها وحجمها عن أنها صرخة البوما جفل مونتجمري.

سألني: «ماذا قلت؟».

«أين وجدتَ هذا المخلوق؟».

«في سان فرانسيسكو. أعترف أنَّه وحشٌ قبيحٌ. وهو أبله، كما تعرف. لا أتذكر من أين جاء. لكنَّني اعتدتُ عليه، تعرف. كيف يصدمك؟»

قلتُ: «إنَّه غير طبيعي. هناك شيء فيه –لا تظنني خياليًا- لكنه يعطيني إحساسًا سيئًا بعض الشيء، ويشعرني بانقباضٍ في عضلاتي، عندما يقترب مني. إنها لمسة شيطانية، في الواقع».

توقَّف مونتجمري عن الأكل، عندما أخبرته بذلك. «يا للعجب!»، قال: «لا أرى ذلك». استأنف وجبته قائلًا: «ليس لديَّ أيُّ فكرة عن ذلك»، وواصل مضغَ طعامِه. «لا بُدَّ أنَّ طاقمَ المركب الشراعي أحسَّ بالشعور نفسِه، وضايقوا هذا الشيطانَ المسكين. أرأيتَ القبطان؟»

وفجأة عوْتْ البوما مرَّة أخرى، وإن كان بشكلٍ أكثر ألمًا هذه المرَّة. تمتمَ مونتجمري بسُبابٍ غيرِ واضحٍ. فكرتُ جديًّا في مهاجمته بشأن الرجال على الشاطئ. ثم أطلقت البوما المسكينة سلسلةً من صرخاتٍ قصيرة وحادَّة.

سألته: «لأيِّ عِرقٍ ينتمي رجالُكَ على الشاطئ؟».

«زملاءٌ ممتازون، أليس كذلك؟»، قال، وهو شارد الذهن، وعاقدًا حاجبيه كلَّما صرخت البوما بشدَّة.

لم أقل أيَّ شيءٍ آخر. انطلقتْ صرخةٌ أخرى أسوأ من سابقتها. نظر نحوي بعينيه الرماديتين البليدتين، ثم شرب المزيدَ من الويسكي. حاول أن يجذب انتباهي إلى مناقشة حول الكحول، زاعمًا أنَّه أنقذ حياتي به. بدا متلهِّفًا لتأكيد حقيقة أنَّني مدينٌ بحياتي له. أجبته بذهنٍ مشتَّتٍ.

انتهينا الآن من وجبتِنا. تولَّى الوحشُ المُشوَّه، ذو الآذان المدبَّبة إزالة البقايا، وتركني مونتجمري بمفردي ثانية في الغرفة. كان طوال الوقت في حالة توتُّرٍ واضحٍ من الضجيج الذي تصدره البوما، وهم يقومون بتشريحها حية. سبق أن أخبرني عن توتُّر أعصابه الغريب، وتركني أشاهد ذلك بوضوحٍ.

وجدتُ أنَّ الصرخات كانت مزعجة على نحوٍ متفردٍ، وزادتْ عمقًا وشدَّة مع حلول فترة ما بعد الظهيرة. كانت الصرخات مؤلمة في البداية، لكنَّ تكرارَها المستمر أخلَّ في النهاية بتوازني. ألقيتُ جانبًا من ترجمة لشعر هوراس كنت أقرأها، وبدأتُ أضمُّ قبضتي، وألدغ شفتي، وأسير في الغرفة جيئة وذهابًا. والآن، أغلقتُ أذناي بأصابعي.

تملَّكتني الاستغاثة العاطفية لتلك الصرخات باطِّرادٍ، إلى حدِّ أنَّها أصبحت في النهاية تعبيرًا حادًّا عن المعاناة التي لم أعُدْ قادرًا على تحمُّلِها في غرفتي الضيقة. خرجتُ من الباب إلى جوٍ حارٍ يبعث على النوم في هذه الفترة المتأخرة من بعد الظهيرة، ومررتُ عند المدخل الرئيس –لاحظتُ أنَّه مغلقٌ، مرة أخرى– فاستدرتُ متجهًا إلى زاوية الجدار.

بدا الصراخ أعلى خارج الأبواب. كأنَّما كلُّ الألم في العالم وجد لنفسه صوتًا. تصوَّرتُ أنَّني لو كنتُ أعرف أنَّ مثل هذا الألم يوجد في الغرفة المجاورة، دون أن يصدر عنه صوتٌ، أعتقد كنتُ لأتحمَّله بدرجة كبيرة. فعندما تجد المعاناة صوتًا، وتجعل أعصابنا ترتجف، نشعر بشفقة مزعجة. ولكن، على الرغم من أشعة الشمس الرائعة وأغصان الشجر الخضراء التي تلوِّح في نسيم البحر الهادئ، كان العالَم في حالة ارتباكٍ وعدم وضوحٍ، في ظلِّ خيالاتٍ سوداء وحمراء، إلى أن ابتعد نطاق سمعي عن المنزل الذي يقع داخل الجدار المربع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(9)

هذا الشيء في الغابة

سرتُ خلال الشجيرات التي كانت تكسو قممَ التلال وراءِ المنزل، دون أيِّ اهتمامٍ باتجاه حركتي. مررتُ خلال ظلالِ مجموعة سميكة من الأشجار ذات الجذوع المستقيمة خلف التلال، ووجدتني بطريقة ما على الجانب الآخر من القمة، التي تنحدر نحو مجرى مائي يمرُّ خلال وادٍ ضيقٍ. توقفتُ واستمعتُ. كانت المسافة التي قطعتُها، أو كتل الغابة المتداخلة، تحوُل دون وصول أيِّ صوتٍ من الحظيرة. كان الهواء ساكنًا. سمعتُ حفيفًا، ثم رأيتُ أرنبًا ركض أمامي إلى أعلى المنحدر. ترددتُ، وجلستُ عند حافة الظلِّ.

كان المكان جميلًا. يختبئ الغدير بين النباتات الوافرة عند الضفاف، باستثناء بقعة واحدة؛ رقعة مثلثة من مياه الغدير المتلألئة. رأيتُ، على الجانب الأبعد، من خلال ضبابٍ تشوبه الزُرقة، كتلةً متشابكة من الأشجار والنباتات المتسلقة، تحت زرقة السماء المضيئة. تتناثر هنا وهناك بقعٌ بيضاء أو قرمزية، دلالة على تفتُّح بعض النباتات الهوائية الممتدة. تركتُ عيني تتجوَّل في هذا المشهد لفترة، ثم بدأتُ أفكر مرَّة أخرى في خصائص رفيق مونتجمري الغريبة. لكن حرارة الجو حالتْ دون قدرتي على إمعان التفكير، ودخلت الآن في حالة من هدوءٍ تتراوح بين النُّعاس واليقظة.

استيقظتُ من هذه الحالة بعد فترة لا أستطيع تحديدها. أيقظني صوتٌ حفيفٌ وسط الخضرة على الجانب الآخر من الجدول المائي. لم أتمكَّن للحظة من رؤية أيِّ شيء سوى قمم نبات السرخس وأعواد القصب المتمايلة. وفجأة ظهر شيءٌ على ضفة الجدول المائي، لم أستطع تمييزه في البداية. أمال الشيءُ رأسَه المستدير نحو الماء، وبدأ يشرب. ثم رأيتُ أنَّه رجلٌ، يسير على أربع مثل الحيوانات. كان يرتدي قطعة قماشٍ ضاربة إلى الزرقة، وكانت بشرته نحاسية اللون، وشعره أسود. يبدو أنَّ القُبح البشع هو طابعٌ ثابتٌ لسكان الجزيرة هؤلاء. سمعتُ صوتَ امتصاص الماء بين شفتيه وهو يشرب.

انحنيتُ للأمام لرؤيته بشكلٍ أفضل. انفصلتْ قطعة من الحمم البركانية، نتيجة اصطدام يدي بها؛ فسقطتْ على المنحدر محدثة صوتًا. نظر الرجل إلى أعلى بطريقة غير مريحة، والتقت أعيننا. نهض على قدميه فورًا، ووقف يمسح فمه بيده الخرقاء وهو ينظر نحوي. كان طول ساقيه بالكاد نصف طول جسمه. ظلَّ كلٌّ منَّا يحدِّق إلى الآخر، ربما لمدة دقيقة. توقف للنظر إلى الوراء مرَّة أو مرتين، ثم تسلَّل بين الشجيرات على يميني. سمعتُ هسهسة أوراق الشجر خافتة على بُعدٍ، ثم تلاشتْ. بقيتُ لفترة طويلة بعد اختفائه جالسًا أحدِّق بالاتجاه الذي اتخذه. وتبددتْ طمأنينة النُّعاس التي كنت أشعر بها.

أفزعني ضجيجٌ خلفي. استدرتُ فجأة، فرأيتُ ذيلًا أبيض يتحرك لأرنبٍ يركض مختفيًا أعلى المنحدر. نهضتُ على قدمي. كان ظهور هذا المخلوق البشع شبه المتوحش قد ملأ فجأة سكون ما بعد الظهيرة الذي كنتُ مستمتعًا به. نظرتُ حولي بعصبية نسبيًا، وندمتُ على أنَّني لم أكن مسلَّحًا. فكرتُ أنَّ الرجل الذي رأيته للتوِّ كان يرتدي قماشًا ضاربًا إلى الزرقة، ولم يكن عاريًا كالمتوحشين. حاولتُ إقناع نفسي، بناء على ذلك، أنَّه ربَّما شخصٌ مسالمٌ، وأنَّ شراسة مظهرة الغريب تعطي انطباعًا خاطئًا عنه.

بيد أنَّ ظهوره أزعجني للغاية. مشيتُ في اتجاه اليسار على طول المنحدر، وكنتُ أدير رأسي وأحدِّق بما حولي بين الأشجار ذات السيقان المستقيمة. لماذا يسير رجلٌ على أربعٍ، ويشرب بشفتيه؟ سمعتُ الآن حيوانًا ينوِّح ثانية، واعتبرتُ أنَّها البوما. استدرتُ ومشيتُ عكس اتجاه الصوت تمامًا. قادني الطريق إلى أسفل، إلى الجدول المائي؛ عبرته وشققتُ

طريقي خلال الشجيرات.

أذهلتني رقعة كبيرة باللون القرمزي الزاهي على الأرض. توجهتُ إلى هناك، ووجدتُ نوعًا غريبًا من الفِطر، يتفرَّع ويتموَّج مثل الأشنة الورقية(3)، لكنَّه يذوب في الوحل عند لمسة. ثم وجدتُ، في ظلال نباتات السرخس وافرة النماء، شيئًا غير سار، جثة أرنب مغطاة بذبابٍ لامعٍ، لكنَّها لا تزال دافئة ورأسها ممزَّقة. توقفتُ مذعورًا عند رؤية الدماء المتناثرة. تمَّ التخلُّص، هنا على الأقل، من زائرٍ للجزيرة! لم تكن هناك أيُّ آثارٍ أخرى للعنف حوله. بدا وكأنه انتُزِع فجأة وقُتِل. وعندما حدَّقت بالجسد الصغير المكسو بالفراء، فكرتُ في مدى صعوبة ارتكاب ذلك. عندئذٍ، وأنا أقف هناك، زاد وضوح تلك الرهبة الغامضة التي انتابتني منذ أن رأيتُ الوجه اللا إنساني للرجل عند الجدول المائي. وبدأتُ أدرك صعوبة رحلتي بين هؤلاء الناس المجهولين. تبدَّلت الغابة حولي في مخيلتي. أصبح كلُّ ظلٍّ أكثر من مجرد ظلٍّ، أصبح كمينًا؛ وكلُّ حفيفٍ أصبح تهديدًا. وبدا لي أنَّ أشياءً غير مرئية تراقبني. قررتُ العودة إلى الحظيرة على الشاطئ. استدرتُ فجأة ودفعتُ نفسي بعنفٍ، وربما حتى بشكلٍ محمومٍ، خلال الشجيرات، متلهفًا الوصول ثانية إلى مساحة خالية حولي.

توقفتُ في الوقت المناسب، حتى لا أظهر في مساحة مفتوحة. كنتُ في نوعٍ من الفسحة في الغابة، سببها سقوطي. كانت النبتات الصغيرة قد بدأتْ كفاحها بالفعل للوصول إلى مساحة شاغرة؛ وخلفها كان نمو السيقان الكثيف، وتشابك الكروم، ورقع الفطريات، والزهور، تسدُّ الطريق أمامها. وأمامي، شاهدتُ ثلاث هيئات بشرية بشعة جاثمة على الأنقاض الفطرية لشجرة ضخمة سقطتْ، ولا يزالون غير مدركين لاقترابي. بدا واضحًا أنَّهما رجلان وامرأة. كانوا عُراة، باستثناء رقعٍ من قماشٍ قرمزيٍّ حول الوسط، وكانت بشرتهم من اللون الوردي الباهت، وهو ما لم أره في أيِّ همجيٍّ من قبل. كانت وجوهُهم سمينة، وضخمة، وبلا ذقون. وجباههم متراجعة، وعلى رؤوسهم شعرٌ خفيفٌ. لم أرَ قطُّ مثل هذه المخلوقات البشعة الشبيهة بالحيوانات.

كانوا يتحدثون، أو على الأقل كان أحدُ الرجال يتحدَّث إلى الاثنين الآخرين؛ وكان الثلاثة مهتمين بالحديث للغاية، إلى حدِّ أنَّهم لم ينتبهوا لصوت اقترابي. تمايلتْ رؤوسُهم وأكتافُهم من جانبٍ إلى آخر. صدرتْ من المتحدث كلماتٌ غليظة وغامضة. وعلى الرغم من أنَّني سمعتها بوضوحٍ، لم أتمكن من تمييز ما يقوله. بدا لي أنَّه يتلو بعض الهراء المُعقد. أصبح نطقه الآن أكثر حدة، وبسط يديه، ثم نهض واقفًا على قدميه. وعندئذٍ بدأ الآخرون في اللغو بانسجامٍ، ونهضوا أيضًا على أقدامِهم، وبسطوا أيديهم، وتمايلتْ أجسادُهم في إيقاعٍ مع أنشودتهم. لاحظتُ قِصَر أرجلهم على نحوٍ غير طبيعيٍّ، وأقدامهم الهزيلة القبيحة. بدأ الثلاثة يدورون ببطءٍ، يرفعون أقدامَهم ثم يهبطون بها لتضرب في الأرض، ويلوِّحون بأذرعهم. تسلَّل لحنٌ من نوعٍ ما إلى تلاوتهم الإيقاعية، تكرَّرت لازمة بدت «ألولا» أو «بالولا». بدأتْ أعينهم تلمع، ووجوهُهم القبيحة تضيء، مع تعبيرٍ عن متعة غريبة. كما أخذ اللعاب يقطر من أفواهِهم الخالية من الشفاه.

فجأة، وأنا أشاهد إيماءاتهم البشعة التي يصعب تفسيرها، أدركتُ بوضوحٍ للمرة الأولى ما أزعجني، ما أعطاني انطباعين غير متَّسقيْن ومتعارضيْن: الغرابة المطلقة، ومع ذلك أغرب ألفة. كانت المخلوقات الثلاثة، المشاركة في هذه الطقوس الغامضة، مخلوقاتٍ بشرية من حيث الشكل؛ لكنَّ فيهم شيئًا يماثل -بشكلٍ غريبٍ- حيوانًا مألوفًا. كلُّ مخلوقٍ من هذه المخلوقات -على الرغم من شكله البشري، وقطعة ملابسه، وشكل جسده البشري الفظ- قد نسج داخله في حركاته، وتعبيرات وجهه، بل في حضوره كله، إيحاءً لا يُقاوَم بالخنزير، تلوث خنزيري، علامة على الحيوان لا لبس فيها.

وقفتُ وهذا الإدراك المدهش يتملَّكني، ثم سرعان ما تسلَّلتْ إلى ذهني أفظعُ التساؤلات.

بدأوا يقفزون في الهواء، واحدًا بعد الآخر، وهم يصيحون ويزمجرون. ثم انزلق أحدُهم، وظلَّ للحظة على أطرافه الأربعة كي يتعافى، وقام على الفور. لكن البريق العابر للطابع الحيواني الحقيقي لهذه الوحوش كان كافيًا.

استدرتُ دون إحداث ضوضاءٍ قدر الإمكان. كنتُ أتجمَّد، بين الحين والآخر، خوفًا من أن يكتشفوا وجودي عند انكسار غصنٍ أو حفيف ورقة شجر. انطلقتُ ثانية عائدًا إلى الشجيرات. مرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أن أستعيد شجاعتي، وأجرؤ على التحرُّك بحرية. تملَّكتني فكرةٌ وحيدةٌ في هذه اللحظة، وهي الابتعاد عن هذه الكائنات الكريهة. ولم ألحظ أنَّني خرجتُ إلى مسارٍ ضيقٍ وسط الأشجار. وبعد أن عبرتُ فجأة أرضَ فضاءٍ صغيرة، رأيتُ بداية غير سارة لساقين قبيحتين بين الأشجار، تتحركان بلا ضوضاءٍ بالتوازي مع مساري، ربما على مسافة ثلاثين ياردة مني. أخفتْ مجموعة متشابكة من النباتات المتسلقة رأسَ الجسم وجزءه العلوي. توقفتُ فجأة، على أمل ألَّا يراني المخلوق. توقفَت القدمين أيضًا. كنتُ عصبيًّا جدًّا، لدرجة أنَّني كنتُ أتحكَّم بصعوبة شديدة في رغبتي المتهوِّرة للفرار. أمعنتُ النظر، وتمكَّنتُ أن أميِّز -بين شبكة النباتات المتداخلة- رأسَ وجسدَ الوحش الذي سبق ورأيته يشرب. حرّك المخلوق رأسَه؛ فظهر وميضٌ زمرديٌّ في عينيه وهو ينظر نحوي عبر ظلال الأشجار، كان لونًا شبه لامعٍ، اختفى وهو يدير رأسّه مرَّة أخرى. ظلَّ للحظة بلا حراكٍ، ثم بدأ يركض بلا ضوضاءٍ بين النباتات الخضراء المتشابكة. في لحظة تالية، اختفى وراء بعض الشجيرات. لم أتمكَّن من رؤيته، لكنَّني شعرتُ أنَّه توقَّف، وأخذ يراقبني ثانية.

ماذا كان هذا الشيء، رجلًا أم وحشًا؟ وماذا يريد مني؟ ليس لديَّ سلاحٌ، أو حتى عصا. والفرار الآن هو ضربٌ من الجنون. على أيِّ حالٍ، ومهما كان هذا الشيء، فقد افتقر إلى الشجاعة لمهاجمتي. استجمعتُ شجاعتي، ومشيتُ نحوه مباشرة. كنتُ حريصًا على عدم إظهار خوفي. انطلقت خلال شجيرات طويلة متشابكة ذات أزهار بيضاء، ورأيته وبعد عشرين خطوة وهو ينظر نحوي مترددًا من فوق كتفه. تقدمتُ خطوة أو خطوتين، موجِّهًا بصري بثباتٍ إلى عينيه.

قلتُ: «من أنتَ؟».

حاول أن ينظر نحوي. قال فجأة «لا!»، ثم استدار قافزًا بعيدًا عني خلال الشجيرات. استدار وحدَّق بوجهي مرَّة أخرى. لمعتْ عيناه تحت الأشجار.

كان قلبي يخفق من الخوف؛ لكنَّني شعرتُ أنَّ فرصتي الوحيدة متاحة الآن، فمشيتُ نحوه بثباتٍ. استدار ثانية، ثم اختفى في عتمة الغسق. اعتقدتُ أنَّني رأيتُ بريقًا في عينية مرَّة أخرى، وكان هذا كلُّ شيءٍ.

أدركتُ للمرَّة الأولى مدى تأخُر الوقت. غربتْ الشمس منذ بضع دقائق، وأخذ غسق المناطق المدارية السريع يتلاشى من السماء الشرقية، وبدأتْ تلحُّ على ذهني فكرة: يجب أن أسرع بالعودة إلى الحظيرة، وإلَّا سأمضي الليلَ بين أخطارٍ مجهولة في هذه الغابات الغامضة. كان التفكير في العودة إلى ذلك الملجأ المسكون بالألم غير مقبولة على الإطلاق، على أنَّ الأسوأ هو حلول الظلام في العراء بكلِّ ما قد يخفيه هذا الظلام. ألقيتُ نظرة أخرى نحو الظِلال الزرقاء التي ابتلعتْ هذا المخلوق الغريب، ثم واصلتُ طريقي أسفل المنحدر نحو الجدول المائي، كي أعود –حسب تصوري- في الاتجاه الذي جئتُ منه.

مشيتُ متلهِّفًا، مع اختلاط العديد من الأشياء في ذهني. وجدتني الآن في مكانٍ مستوٍ بين الأشجار المتناثرة. كان النقاء عديم اللون، الذي يأتي بعد غروب الشمس، داكنًا. أصبحتْ السماء الزرقاء فوقي أكثر عمقًا للحظات؛ واخترقتْ النجوم الصغيرة، الواحد تِلوَ الآخر، ذلك الضوء الخافت؛ أمَّا المساحات الفاصلة بين الأشجار، والفجوات بين النباتات الأخرى،

أصبحت سوداء غامضة بعد أن كانت زرقاء ضبابية نهارًا. واصلتُ سيري. اختفتْ الألوان من العالم. ارتفعتْ قِممِ الأشجار في مواجهة السماء الزرقاء المضيئة، في صورة ظليَّة سوداء كالحبر، وذاب كلُّ ما تحتها في سوادٍ لا شكل له. أصبحتْ الأشجار الآن أكثر رقة، والشجيرات أكثر وفرة. وصلت إلى مساحة مقفرة مغطاة برمال بيضاء، ثم مساحة أخرى من الشجيرات المتشابكة. لا أتذكر أنَّني عبرتُ مساحة مفتوحة من الرمال من قبل. بدأ يعذبني حفيفٌ خافتٌ على يدي اليمنى. اعتقدتُ في البداية أنَّني أتوهَّم؛ إذا كلَّما توقفتُ، يسود الصمت، باستثناء نسيم المساء عند قمم الأشجار. وعندما استدرتُ كي أسرع مرَّة أخرى، سمعتُ صدى لخطواتي.

استدرتُ مبتعدًا عن الغابة، متوجهًا نحو المناطق المكشوفة. كنتُ أستدير بشكلٍ مفاجئ، بين الحين والآخر، في محاولة لمفاجأة ذلك الشيء الذي يتسلَّل خلفي. لم أرَ شيئًا، ومع ذلك زاد باطرادٍ إحساسي بوجودٍ آخر. أسرعتُ في خطواتي، ووصلتُ بعد فترة إلى سلسلة من التلال المنخفضة، عبرتها ثم استدرتُ بسرعة وأنا أنظر نحوها بثباتٍ من الجانب الآخر. بدتْ سوداء بوضوحٍ في مواجهة السماء المظلمة. قفزتْ الآن كتلة بلا شكلٍ عند الأفق، ثم اختفتْ ثانية. تأكدتُ أنَّ خصمي أسمر الوجه لا يزال يطاردني، كما أدركتُ أيضًا –مع الأسف- أنَّني ضللتُ طريقي.

بقيتُ لفترة أسرع في حيرة يائسة، ويطاردني هذا الشيء الخفي. وأيًّا ما كان، فهو إمَّا يفتقر إلى الشجاعة لمهاجمتي، أو ينتظر فرصة مناسبة. واصلتُ السير في العراء. كنتُ أستدير أحيانًا لأصغي السمع. وأقنعتُ نفسي الآن، إلى حدٍّ ما، أنَّ مطاردي كفَّ عن مطاردتي، أو كان مجرد تصوُّرٍ من خيالي المضطرب. ثم سمعتُ صوت البحر؛ فأسرعت خطاي بحيث كنت أركض تقريبًا، وعلى الفور سمعتُ خطواتٍ متعثِّرة خلفي.

التفتُ فجأة، محدقًا بالأشجار الغامضة ورائي. بدَ أنَّ ظِلًا أسود يقفز من مكانٍ إلى آخر. وقفتُ جامدًا أصغي السمع، إلَّا أنَّني لم أسمع سوى تسلُّل الدم إلى أذني. اعتقدتُ أنَّ أعصابي متوترة، وأنَّ مخيلتي تخدعني؛ فاستدرتُ بحزمٍ نحو صوت البحر مرَّة أخرى.

وبعد حوالي دقيقة، قلّت الأشجار، وخرجت إلى لسان من أرض جرداء منخفضة تمتد في المياه الداكنة. كان الليل هادئًا وصافيًا، وارتجف انعكاس النجوم المتزايدة على أمواج البحر الهادئة. وعلى بُعدٍ، كان ارتطام الأمواج على مجموعة متقطعة من الشعاب المرجانية يلمع بضوئه الشاحب. ورأيتُ في اتجاه الغرب ضوء البروج مختلطًا بالتألق الأصفر لنجمة المساء. كان الساحل في اتجاه الشرق، ويخفيه اللسان غربًا. ثم تذكرتُ أنَّ شاطئ مورو يقع في الغرب.

انكسر غصنٌ خلفي وأصدر حفيفًا. استدرتُ، ووقفتُ في مواجهة الأشجار المظلمة. لم أتمكَّن من رؤية أي شيء، أو ربما تمكَّنتُ من رؤية الكثير. كان كلُّ شكلٍ مظلمٍ في العتمة يتميَّز بصفة تنذر بالسوء، وتوحي غرابته بضرورة الاحتراس. لذلك وقفتُ ربما لدقيقة، ثم استدرتُ في اتجاه الغرب لعبور اللسان، وعيني لا تزال تنظر نحو الأشجار. وعندما تحركتُ، تحركتْ إحدى الظلال المتربصة لتتبعني.

تسارعتْ خفقات قلبي. أصبح الآن الامتداد الواسع للخليج في اتجاه الغرب مرئيًّا. توقفتُ ثانية. توقف الظل الصامت على بُعد عشرات الياردات مني. سطعتْ نقطة ضوء صغيرة على المنعطف البعيد للمنحنى، وبدا الامتداد الرمادي للشاطئ الرملي خافتًا تحت ضوء النجوم. ربما تقع نقطة الضوء الصغيرة هذه على بعد ميلين. كان الوصول إلى الشاطئ يتطلب السير خلال الأشجار، حيث الظلال المتربصة، ثم الهبوط على منحدرٍ كثيفِ الأشجار.

يمكنني الآن رؤية هذا الشيء أكثر وضوحًا. لم يكن حيوانًا، لأنه كان منتصبًا. وعندئذ فتحت فمي للتحدث، لكن بلغمًا أجش خنق صوتي. حاولت مرة أخرى، صائحًا:«من هناك؟»، لم يكن هناك أيُّ ردٍ. تقدَّمتُ خطوة. لم يتحرك الشيء، وإنما استجمع نفسه فحسب. اصطدم قدمي بحجرٍ. أعطاني هذا فكرة. انحنيتُ، دون أن أبعد عيني عن الهيئة السوداء أمامي، والتقطت هذه الكتلة الصخرية. لكن الشيء، عندما تحركت، استدار فجأة كما قد يفعل الكلب، وتسلَّل في مسارٍ متعرجٍ نحو الظلام. ثم تذكرتُ حيلة يمارسها التلاميذ في مواجهة الكلاب الكبيرة؛ فوضعت الصخرة في منديلي، ولففتها حول معصمي. سمعت حركة بعيدة بين الظلال، كما لو كان هذا الشيء يتراجع. وفجأة تلاشت حماستي المتوترة، وأخذتُ أتصبَّب عرقًا غزيرًا، ثم سقطتُ مرتجفًا، في ظل هزيمة خصمي وهذا السلاح في يدي.

مرَّ بعضُ الوقت قبل أن أتمكَّن من اتخاذ قرارٍ بالهبوط إلى أسفل نحو الشاطئ، من خلال الأشجار والشجيرات على جانب اللسان. فعلتُ ذلك بسرعة أخيرًا. وعندما خرجتُ من الغابة ووصلتُ إلى الرمال، سمعتُ جسمًا آخر يأتي مسرعًا خلفي. وعندئذ انتابني خوفٌ شديدٌ، وبدأتُ أركض على الرمال. وعلى الفور سمعتُ وقع أقدام لينة سريعة تطاردني. صرختُ فزعًا، وضاعفتُ من سرعتي. رأيت خلال حركتي، بعض الأشياء السوداء القاتمة، التي يصل حجمها إلى نحو ثلاثة أو أربعة أضعاف حجم الأرانب، تركض أو تقفز على الشاطئ في اتجاه الشجيرات.

سوف أتذكر ما حييت رعب تلك المطاردة. ركضتُ بالقرب من حافة الماء، وكنت أسمع بين الحين والآخر تناثر المياه من وقع الأقدام التي تلاحقني. رأيتُ عن بُعدٍ، على مسافة بعيدة تبعث على اليأس، الضوء الأصفر. والليل حولنا أسود وساكن. تتابع صوت تناثر المياه، مع اقتراب الأقدام التي تلاحقني. تقطَّعتْ أنفاسي؛ إذ لم أمارس التمارين الرياضية منذ فترة طويلة. كنت أشهق، وشعرتُ بألمٍ كسكينٍ ينغرس في جنبي. أدركت أنَّ هذا الشيء سيلحق بي قبل أن أصل إلى الحظيرة بفترة طويلة. وفي ظل حالة اليأس واللهاث، استدرتُ بسرعة وألقيتُ الحجر نحوه بكلِّ قوتي كأنَّما يقف أمامي مباشرة؛ فانطلق الحجر من حمالة المنديل. التفَّ، ورأيت الشيء –الذي كان يركض على أطرافه الأربعة– ينهض واقفًا على قدميه، وقد أصاب الحجر صدغه الأيسر. صدر صوتٌ رنّانٌ عالٍ من جمجمته. توجَّه الرجل/الحيوان نحوي متخبطًا، ودفعني بيديه، ثم أخذ يتأرجح أمامي إلى أن وقع على الرمل ووجهه في الماء؛ وهناك رقد بلا حراكٍ.

لم أستطع الاقتراب من تلك الكومة السوداء. تركته هناك، والمياه تتموج حوله تحت النجوم الساكنة. ابتعدت عنه بمسافة كبيرة، ثم تابعت طريقي نحو التوهج الأصفر الصادر من المنزل. والآن، مع الأثر الإيجابي للشعور بالراحة، سمعت أنين البوما المثير للشفقة؛ الصوت الذي دفعني أصلًا لاستكشاف هذه الجزيرة الغامضة. استجمعتُ كلَّ قوتي، على الرغم من شعوري بالضعف والإرهاق الشديد، وبدأتُ أركض مرة أخرى نحو الضوء. ظننت أنني سمعت صوتًا يناديني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(10)

صراخ رجل

عندما اقتربتُ من البيت، رأيتُ أنَّ الضوءَ يسطع من باب غرفتي المفتوح. ثم سمعتُ صوتًا يخرج من الظلام بجانب ذلك المستطيل الضوئي البرتقالي؛ كان صوت مونتجمري يصيح: «بريندبك!»، فواصلتُ الركض. سمعته الآن مرَّة أخرى. أجبته بضعفٍ «مرحبًا!»، وفي اللحظة التالية وصلتُ إليه مترنِّحًا.

«أين كنتَ؟»، قال وهو يمسكني بذراعه، حتى يسقط الضوء من الباب على وجهي. «كان كلانا مشغولًا للغاية، إلى درجة أنَّنا نسيناكَ حتى قبل قرابة نصف ساعة». قادني إلى الغرفة، وأجلسني على الكرسي القابل للطيِّ. أعماني الضوء لفترة. قال: «لم نتصوَّر أنَّك ستبدأ في استكشاف جزيرتنا دون أن تخبرنا»؛ ثم «كنتُ خائفًا... ولكن... ماذا بكَ... مرحبًا!».

انهار ما تبقَّى من قواي، وسقط رأسي إلى الأمام على صدري. أعتقد أنَّه شعر بالراحة عندما أعطاني براندي.

قلتُ: «أغلق هذا الباب أرجوكَ».

قال: «لقد التقيتَ ببعض ما لدينا من غرائب، هه؟».

أغلق الباب، والتفت نحوي ثانية. لم يسألني عن أيِّ شيءٍ، لكنَّه أعطاني المزيدُ من البراندي والماء وضغط عليَّ لتناول الطعام. كنتُ في حالة انهيارٍ. قال شيئًا غامضًا عن نسيانه تحذيري، وسألني بإيجازٍ متى غادرتُ المنزل وما رأيته.

أجبته باختصارٍ، بجُملٍ متقطِّعة. قلتُ في حالة أقرب إلى الهستيريا: «أخبرني عمَّا يعنيه كلُّ شيء».

قال: «ما من شيء شديد البشاعة. لكنِّي أعتقد أنَّكَ نِلتَ ما يكفي ليومٍ واحدٍ». وفجأة انطلقتْ من البوما صرخة حادَّة من الألم. وعندئذٍ بدأ يهمهم بالسباب. قال: «أنا ملعونٌ، هذا المكان أسوأ من شارع جووير، وقططه».

قلتُ: «مونتجمري، ما هذا الشيء الذي كان يلاحقني؟ هل هو وحشٌ أم رجلٌ؟».

قال: «إن لم تنم الليلة، سوف يصيبك مسٌّ من الجنون غدًا».

وقفتُ أمامه وسألته: «ما هذا الشيء الذي كان يلاحقني؟».

نظر إلى عيني مباشرة، لوى فمه. بهتت عيناه، اللتان كانتا تتحركان قبل دقيقة. قال: «مما حكيته، أعتقد أنه غول».

اجتاحتني عاصفة من التوتُّر الشديد، مرَّت بأسرع مما جاءت. ألقيتُ بنفسي على الكرسي ثانية، وضغطتُ بيدي على جبهتي. عاد أنين البوما.

جاء مونتجمري خلفي، ووضع يده على كتفي. قال: «انظر، يا بريندبك، ليس خطئي أنَّك خرجتَ متجولًا في جزيرتنا السخيفة هذه. لكن الأمر ليس سيئًا كما تظن، يا رجل. أعصابك منهارة. دعني أعطيكَ شيئًا يجعلك تنام. هذا سوف يبقيك لساعاتٍ. عليك ببساطة أن تنام، وإلَّا لن أتحمَّل مسؤولية العواقب».

لم أرد. انحنيتُ للأمام، وغطيتُ وجهي بيدي. عاد الآن ومعه قدرٌ صغيرٌ يحتوي على سائل داكن اللون. أعطاني إياه، أخذته دون مقاومة، ثم ساعدني للوصول إلى الأرجوحة الشبكية.

عندما استيقظتُ، كان الوقت نهارًا. بقيت مستلقيًا لفترة قصيرة، أحدِّق بالسطح فوقي. لاحظتُ أنَّ عوارضه مصنوعة من أخشاب سفينة. أدرتُ رأسي، فرأيت وجبة أُعِدَت لي على الطاولة. أدركتُ أنَّني جائعٌ، وعلى استعدادٍ للنزول من الأرجوحة، التي توقَعتْ بأدبٍ جمَّ نيتي؛ إذ التوتْ وألقتْ بي على الأرض على أطرافي الأربعة.

نهضتُ وجلستُ أمام الطعام. شعرتُ برأسي ثقيلًا، ومجرد ذاكرة غامضة بداية عن الأشياء التي حدثتْ خلال الليل. هبَّ نسيمُ الصباح بلطفٍ خلال النافذة الخالية من الزجاج. أسهم هذا، علاوة على الطعام، في شعوري براحة حيوانية. انفتح خلفي الآن الباب (الباب الداخلي الذي يفضي إلى ساحة الحظيرة)، التفتُ، ورأيتُ وجه مونتجمري.

قال: «حسنًا، «أنتَ على ما يرام. أنا مشغولٌ للغاية». وأغلق الباب.

اكتشفتُ بعد ذلك أنَّه نسي أن يوصِد الباب. ثم تذكرتُ تعبيرَ وجهه في الليلة السابقة، وعندئذٍ تذكَّرتُ كلَّ ما مررتُ به. وعندما شعرتُ بالخوف ثانية، انطلقتْ صرخة من الداخل؛ لكنَّها هذه المرَّة لم تكن صرخة البوما. أنزلتُ الطعام الذي تردَّد على شفتي، واستمعتُ. لا شيء سوى الصمت، باستثناء همس نسيم الصباح. بدأتُ أعتقد أن أذني خدعتني.

استأنفتُ وجبتي بعد فترة طويلة، وأذناي يقظتان. سمعتُ الآن شيئًا آخر، ضعيفًا جدًّا وخافتًا. جلستُ متجمِّدًا في مكاني. على الرغم من ضعف الصوت وخفوته، فقد مسَّني بعمقٍ أكثر من كلِّ ما سمعته حتى الآن من فظائع وراء الجدار. ما من خطأ هذه المرَّة في نوع الأصوات الضعيفة المتقطعة؛ ما من شكٍّ على الإطلاق في مصدرها. كانت أنينًا، تقطعه تنهداتٌ ولهاثٌ ينمُّ عن معاناة. لم يكن حيوانًا هذه المرة، بل كان إنسانًا في عذابٍ!

نهضتُ، ما أن أدركتُ ذلك. عبرتُ الغرفة في ثلاث خطوات، وأمسكتُ بمقبض الباب المفضي إلى الفناء، وفتحته بقوة.

اعترض مونتجمري طريقي صائحًا: «بريينديك، يا رجل! توقَّف!».

نبح وزمجر كلبٌ ضخمٌ مذهولٌ. رأيتُ دماءً في الحوض –دماء بنيَّة اللون، وبعضها قرمزي- وشممتُ رائحة حمض الكاربوليك الغريبة. ثم من خلال مدخلٍ مفتوحٍ في الخلف، في ضوءٍ خافتٍ للظلِّ، رأيتُ شيئًا مقيّدًا بشكلٍ مؤلمٍ على إطار؛ وكان مضمدًا، وأحمر، ومليئًا بالندوب. ثم ظهر وجه مورو العجوز، شاحبًا ورهيبًا. في لحظة أمسك بي من الكتف بيدٍ تلطَّخت بالأحمر، وأدارني، وقذفني إلى غرفتي. رفعني كأنَّني طفلٌ صغيرٌ. سقطتُ بكامل طولي على الأرض، أغلق الباب، فحجب توتر وجهه الشديد. سمعت المفتاح في القفل، وصوت مونتجمري يرتفع.

سمعت مورو يقول: لقد دمَّر العمل الذي أمضيتُ عمري فيه».

قال مونتجمري: «إنَّه لا يفهم». لم أتمكَّن من سماع باقي كلامه.

قال مورو: «لم يعد ممكنًا إضاعة الوقت».

لم أسمع البقية. استجمعتُ نفسي، ووقفت مرتجفًا، وذهني مشوشٌ تمامًا بأبشع الهواجس. فكرتُ، هل يمكن أن شيئًا مثل تشريح البشر أحياءٍ يجري هنا؟ انطلق السؤال مثل البرق في سماء مضطربة. وفجأة تكثَّف الرعب الملبَّد بالغيوم في ذهني، متجسدًا في إدراك ما قد أواجهه من خطرٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(11)

اصطياد الرجل

خطر ببالي، مع أملٍ غير عقلاني في الهروب، أنَّ الباب الخارجي لغرفتي لا يزال مفتوحًا. اقتنعتُ الآن، وتأكدتُ تمامًا، أنَّ مورو كان يقوم بتشريح إنسانٍ حيٍّ. منذ أن سمعتُ اسمه، حاولتُ أن أربط في ذهني بطريقة أو بأخرى نزعة سكان الجزيرة الحيوانية البشعة بأعماله البغيضة؛ واعتقدتُ الآن أنَّني رأيت كلَّ شيء. تكررتْ في ذهني ذكرياتُ عملِه في مجال نقل الدم؛ وهذه المخلوقات التي رأيتها، كانت ضحايا تجربة بشعة. أراد هذان الوغدان المقززان مجرد إبعادي، وخداعي بإظهار ثقتهما، ثم إخضاعي لمصيرٍ أفظع من الموت: التعذيب؛ وبعد التعذيب، أبشع انحطاط يمكن تصوره: إطلاق سراحي كروحٍ ضائعة، كوحشٍ، مثل بقية البشر على الجزيرة الذين قاما بتحويلهم إلى حيوانات.

نظرتُ حولي بحثًا عن أي أسلحة. لم أجد شيئًا. ثم بإلهامٍ ما، قلبتُ الكرسي القابل للطي، ووضعتُ قدمي على جانبه، وانتزعتُ حاجزه الخشبي الجانبي، ووجدتُ مسمارًا مثبَّتًا به. وقد منح المسمار -نظرًا لبروزه- لمسة من الخطر على سلاحٍ تافه. سمعتُ خطوة في الخارج، ففتحتُ الباب بقوة، ووجدت مونتجمري على بُعد ياردة. لقد قصد أن يغلق الباب الخارجي! رفعتُ العصا المزوَّدة بالمسمار وصوبتُها نحو وجهه، لكنَّه قفز إلى الخلف. ترددتُ للحظة، ثم استدرتُ وهربتُ في اتجاه زاوية المنزل. سمعتُ صيحتَه المندهشة: «بريнديك، يا رجل! لا تكن أحمقَ سخيفًا، يا رجل!».

فكرتُ أنَّه، بعد دقيقة أخرى، سيحبسني، ويبدأ في إعدادي لمصيري كأرنب تجارِب. ظهر خلف الزاوية، لأنَّني سمعته يصرخ: «بريندِيك!». ثم بدأ يركض خلفي صائحًا. أخذتُ أركض بغير هدى. ذهبتُ إلى الشمال الشرقي في اتجاهٍ عموديٍّ على الاتجاه الذي سلكته خلال رحلة استكشافي السابقة. ركضتُ مسرعًا إلى الشاطئ. نظرتُ مرة من فوق كتفي، ورأيتُ مرافقه معه. ركضتُ غاضبًا إلى أعلى المنحدر، ثم فوقه، وبعد ذلك اتجهتُ شرقًا على طول وادٍ صخريٍّ تقع الغابات على جانبيه. ركضتُ لربما لمسافة ميل، وشعرتُ بإجهاد صدري، وسمعتُ نبضات قلبي. لم أعد أسمع شيئًا من مونتجمري أو رفيقه، وشعرتُ أنَّني على حافة الإنهاك. انعطفتُ بحدة نحو الشاطئ، كما تصورت، وتمددت أسفل سقيفة من الخيزران. بقيت لفترة طويلة، أخشى التحرُّك، بل وأخشى حتى من وضع خطة عملٍ. كان المشهد البري حولي صامتًا تحت الشمس، والصوت الوحيد بالقرب مني كان طنينًا رقيقًا من البعوض الصغير الذي اكتشف وجودي. تبينت الآن صوت نسيمٍ خافتٍ؛ إنه همهمة أمواج البحر على الشاطئ.

بعد قرابة ساعة سمعتُ مونتجمري يصيح باسمي، على مسافة بعيدة شمالًا. وهذا ما جعلني أفكر في خطة عملٍ. فسرتُ حينذاك أنَّ هذه الجزيرة مأهولة فقط بهذين الرجلين اللذين يقومان بتشريح الأحياء، إضافة إلى ضحاياهما الذين تحوَّلوا إلى الحيوانية. ما من شكٍّ في أنَّهما يستطيعان الضغط على بعض هؤلاء الضحايا، إذا لزم الأمر، وتسخيرهم ضدي. كنتُ أعرف أن كلًّا من مورو ومونتجمري يحمل مسدسًا؛ أما أنا، ويا للسخرية، فكنت مسلحًا بقضيبٍ خشبيٍّ ضعيفٍ يبرز منه مسمارٌ صغيرٌ.

ولذا، بقيتُ مستلقيًا في مكاني إلى أن بدأتُ أفكر في الطعام والشراب. ومع هذا التفكير، عاودني الشعور باليأس نتيجة وضعي. لا أعرف أي طريقة للحصول على شيء للأكل. كنت أجهل النباتات تمامًا، لأكتشف أي جذر أو فاكهة حولي؛ كما ليست لديَّ أي وسيلة لاصطياد الأرانب القليلة على الجزيرة. وكلما فكرت في الاحتمالات المختلفة، يزداد الأمر سوءًا. وأخيرًا، في سياق وضعي اليائس، تحوَّل عقلي إلى الرجال الحيوانات الذين قابلتهم.

حاولت أن أجد أيَّ أملٍ في ما أتذكره عنهم. أخذت أتذكَّر كلَّ من رأيته، محاولًا أن تسعفني ذاكرتي بأي شيء.

وفجأة سمعتُ نباح أحد كلاب الصيد، فأدركتُ وجودَ خطرٍ جديدٍ. لم استغرق وقتًا طويلًا في التفكير، وإلَّا أدركوني. أمسكُت سريعًا العصا ذات المسمار، واندفعتُ من مكان اختبائي إلى صوت البحر. أتذكر نمو النباتات الشائكة، ذات الأشواك التي أخذت تطعنني مثل السن المدبب لريشة الكتابة. خرجت من هذه المنطقة -وأنا أنزف، وملابسي ممزقة– ووجدتني على حافة رافد مائي يتجه شمالًا. نزلت إلى الماء مباشرة دون أن أتردد لدقيقة. خضت في الماء إلى أن وجدت نفسي في نهير صغير والماء يصل إلى ركبتي. وأخيرًا، تسلقت إلى الضفة الغربية، وقلبي ينبض بصوتٍ عالٍ يرنُّ في أذني. تسللتُ إلى مجموعة متشابكة من أشجار السرخس مترقبًا. سمعتُ اقترابَ الكلب (كان كلبًا واحدًا فقط)، ونبح عندما وصل إلى الأشواك. لم أسمع أكثر من ذلك، وبدأت أعتقد أنني أفلحت في الهرب.

مرَّت الدقائق، وطال الصمت. وأخيرًا بعد ساعة من الأمان، بدأتُ استعيد شجاعتي. بحلول ذلك الوقت، لم أعد مرعوبًا أو يائسًا بشدة. لقد تجاوزت حدَّ الرعب واليأس. شعرت الآن أنَّ حياتي ضاعت عمليًا، وأمدني هذا الاقتناع بالجرأة للقيام بأي شيء. كانت لديَّ رغبة حتى في مقابلة مورو وجهًا لوجه؛ بل وعندما خضت في الماء، تذكرتُ أنَّني إذا تعرضتُ لضغطٍ شديدٍ، لا يزال أمامي طريقٌ واحدٌ على الأقل للهروب من العذاب: لن يمكنهم منعي من الانتحار غرقًا. لقد فكرت قليلًا، عندما كنت في الماء، في إمكانية إغراق نفسي؛ على أنَّ رغبتي الغريبة في خوض المغامرة كلها، وشغفَ فضولي مذهل وموضوعي، منعاني. مددتُ أطرافي المتقرحة المؤلمة من وخز من النباتات الشوكية، وأخذت أتطلَّع في الأشجار من حولي. وفجأةً وقعت عيناي على وجه أسود يراقبني، بدا يقفز من النباتات الخضراء المتشابكة المحيطة به. إنَّه المخلوق القرد الذي استقبل الزورق البخاري عند الشاطئ. كان متشبثًا بجذعٍ مائلٍ لإحدى شجرات النخيل. أمسكتُ بعصاي، ووقفتُ في مواجهته. بدأ يثرثر. «أنت، أنت، أنت» – هذا كلُّ ما أمكنني تمييزه في البداية. وفجأة سقط من الشجرة، وفي اللحظة التالية أمسك بالسعف وأخذ يحدِّق بوجهي بفضولٍ.

لم أشعر تجاه هذا المخلوق بالاشمئزاز نفسه الذي شعرت به في لقاءاتي مع الرجال الوحوش الآخرين. قال: «أنت،... في القارب». كان رجلًا إذن، على الأقل مثل مرافق مونتجمري، لأنه كان يستطيع التحدث.

قلت: «نعم. أنا جئت في القارب. من السفينة».

قال: «أوه!»، وتجولت عيناه اللامعتان القلقتان في هيئتي؛ من قمة رأسي، إلى يدي، إلى العصا التي أحملها، إلى قدمي، إلى الأماكن الممزقة في معطفي، والجروح والخدوش التي سبَّبتها لي الأشواك. بدا في حيرة من شيء ما. عادت عيناه تنظر إلى يدي. رفع يده وأخذ يعد أصابعه ببطء، «واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.... ثمانية؟».

لم أفهم المعنى حينذاك؛ لكنني اكتشفت لاحقًا أنَّ نسبة كبيرة من هؤلاء البشر الوحوش لديهم أيادٍ مشوَّهة، تفتقر في بعض الأحيان إلى ثلاث أصابع. على أنني خمَّنتُ أنَّ ما فعله كان طريقة للتحية، ففعلت الشيء نفسه ردًا على تحيته. ابتسم بارتياحٍ كبيرٍ. ثم تجوَّلتْ نظرته السريعة الخاطفة ثانية، بعدها قام بحركة سريعة ثم اختفى. تمايل سعف السرخس الذي كان يقف بيننا، مُصدرًا حفيفًا.

اندفعت خلفه، وأدهشني أن أجده يتأرجح بمرحٍ، ممسكًا بذراعه الهزيل أحد فروع النباتات الزاحفة التي تتدلَّى من فوق أوراق الشجر. وكان ظهره ناحيتي.

قلت: «مرحبًا!».

نزل بقفزة ملتوية ووقف أمامي.

قلت: «أين يمكنني أن أجد شيئًا آكله؟».

أجابني: «تأكل! تأكل طعام البشر الآن». وعادت عينه إلى أرجوحة الفروع، ثم قال: «عند الأكواخ».

«ولكن، أين الأكواخ؟».

«أوه!».

«أنا غريبٌ، كما تعرف».

عندئذ أخذ يتأرجح، وانطلق في سيره سريعًا. كانت جميع حركاته سريعة بشكلٍ غريبٍ. قال: «تعالَ معي».

ذهبتُ معه لاستكشاف المغامرة. خمَّنتُ أنَّ الأكواخ هي مأوى قاسٍ يعيش فيه مع المزيد من هؤلاء البشر الحيوانات. ربما أجدهم ودودين، وربما أجد شيئًا في عقولهم يمكنني التعامل معه. لا أعرف إلى أي مدى نسوا تراثهم البشري.

هرول بجانبي رفيقي الشبيه بالقرد، ويداه متدليتان وفكُّه بارزٌ إلى الأمام. وددتُ أن أعرف شيئًا عن ذاكرته، فسألته: «منذ متى وأنت على هذه الجزيرة؟».

سألني: «كم من الوقت؟»؛ وبعد أن كررتُ السؤال، رفع ثلاث أصابع.

كان المخلوق أفضل قليلًا من أن يكون أحمقَ. حاولتُ أن أفهم مقصده، وإنَّما يبدو أنَّني تسبَّبتُ في ضجره. بعد سؤالٍ أو اثنين آخرين، ابتعد فجأة من جانبي، وذهب يقفز لقطف بعض الفاكهة التي تدلَّت من شجرة. أزال حفنة من القشور الشائكة، ثم أخذ يتناول محتويات الثمرة. شاهدتُ ذلك بارتياحٍ؛ إذ كانت إشارة، على الأقل، للطعام. حاولتُ أن أسأله بعضَ الأسئلة الأخرى، لكن ثرثرته وردوده الفورية كانت تتعارض أحيانًا وأغراض سؤالي. كان القليلُ من إجاباته مناسبًا، بينما كان بعضُها الآخر يشبه الببغاء في ترديده للكلام.

كنتُ مهتمًا للغاية بهذه الخصائص، حتى إنَّني لم انتبه تمامًا للمسار الذي اتبعناه. وصلنا الآن إلى الأشجار، وكانت جميعها متفحمة وبُنيَّة اللون، ثم إلى مكانٍ خالٍ مغطَّى بقشرة بيضاء تميل إلى اللون الأصفر، ويتدفَّق خلالها دخانٌ لاذعٌ في نفحاتٍ إلى الأنف والعينين. وعلى يميننا، فوق الصخور الجرداء، رأيتُ سطح البحر الأزرق. التفَّ المسار فجأة إلى وادٍ ضيقٍ، بين كتلتين ساقطتين وخشنتين من صخور الحُمَم البركانية السوداء. دخلنا هذا الوادي.

كان الظلام حالكًا في الممر، بعد أن انعكس ضوء الشمس الساطع من الأرضية الكبريتية. أصبحت جدرانه شديدة الانحدار وتقاربت. مرَّتْ بقعٌ خضراء وقرمزية أمام عيني. توقَّف مرشدي فجأة قائلًا: «البيت!». وقفتُ على أرضية صدع كان في البداية مظلمًا تمامًا بالنسبة لي. سمعتُ بعضَ الأصوات الغريبة، وحككتُ عينيَّ بأصابع يدي اليسرى. تبيَّنتُ رائحة كريهة، تشبه رائحة قفصٍ متسخٍ لقردٍ. انفتحتْ الصخرة ثانية بعد ذلك على منحدرٍ متدرجٍ من مساحة خضراء تضيئها أشعة الشمس، وعلى جانبيها يتسرَّب الضوء من خلال طرقات ضيقة وصولًا إلى وسط الظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(12)

القائلون بالقانون

لمس شيءٌ باردٌ يدي. قفزتُ بعنفٍ، ورأيتُ بالقرب مني شيئًا ورديًا باهتًا بدا أشبه بطفلٍ مسلوخٍ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر في العالم. كانت ملامح المخلوق تماثل تمامًا الملامح المعتدلة للحيوان المُسمَّى بالكسلان، وإن كانت مثيرة للاشمئزاز؛ نفس الجبهة المنخفضة والإيماءات البطيئة.

وما أن مرَّت الصدمة الأولى لتغيير الضوء، رأيتُ ما حولي أكثر وضوحًا. وقف المخلوق الصغير الشبيه بالكسلان يحدِّق إليَّ. اختفى مرشدي. وكان المكان عبارة عن ممرٍّ ضيقٍ بين جدرانٍ عالية من الحُمم البركانية، وصدع في الصخور المتشابكة، وعلى الجانبين أكوامٌ متشابكة من طحالب حصير البحر، وسعف النخيل، وأعواد الخيزران المتكئة على الصخور وتشكِّل أوكارًا داكنة خشنة يتعذَّر اختراقها. لم يكن اتساع الطريق المتعرج حتى الوادي بين هذين الجدارين يزيد على ثلاثة ياردات، وشوَّهته كتلٌ من لبِّ الفاكهة المتحلِّلة وغيرها من النفايات، التي سبَّبت رائحة المكان الكريهة.

كان المخلوق/الكسلان الوردي الصغير لا يزال يختلس النظر نحوي عندما ظهر الرجل/القرد ثانية عند فتحة أقرب وكرٍ، وألمح لي بالدخول. وعندئذٍ رأيتُ وحشًا مترهلًا يخرج متلويًا من أحد الأماكن البعيدة في هذا الشارع الغريب، ووقف في صورة ظلِّية بلا ملامح، أمام المساحة الخضراء الزاهية في الخلف، وهو يحدِّق بوجهي. تردَّدتُ، وفكرتُ قليلًا أن أعود هاربًا من الطريق نفسه الذي أتيت منه. لكنني عقدتُ العزم على المضي قدمًا في المغامرة؛ فأمسكتُ عصاي ذات المسمار من منتصفها، وزحفتُ وراء مرشدي داخل المنحدر كريه الرائحة.

كانت المساحة شبه دائرية، على شكل نصف خلية نحلٍ. وفي مواجهة الجدار الصخري، الذي يشكِّل الجانب الداخلي، توجد كومة من الفواكه المتنوعة، والمكسرات، وجوز الهند، من بين أشياء أخرى. وعلى الأرض، توجد بعض الأوعية الخشنة المصنوعة من الحُمم البركانية والخشب، بينما يوجد وعاءٌ على مقعدٍ خشنٍ. لا توجد نارٌ. جلستْ كتلة من الظلام بلا شكلٍ في أحلك ركنٍ من أركان الكوخ، وزمجرتْ عند دخولي: «أهلًا!». وقف الرجل/القرد في ضوءٍ خافتٍ عند المدخل، وأعطاني ثمرة جوز هند مشقوقة، وأنا أتسلَّل إلى الزاوية الأخرى وأجلس القرفصاء. أخذتُ الثمرة وبدأتُ أقضمها، في هدوءٍ قدر الإمكان، على الرغم من شعوري بالخوف وقُربي الذي لا يطاق من الوكر. وقفت الكائن/الكسلان الوردي الصغير عند فتحة الكوخ، وجاء كائنٌ آخر بوجهٍ كئيبٍ وعينين لامعتين محدِّقًا من فوق كتفه.

صدرت كلمة «أهلًا!» من كتلة الغموض الواقفة في مواجهتي. «أنَّه رجلٌ».

«إنَّه رجلٌ»، أخذ مرشدي يثرثر، «رجل، رجل، رجل، رجل من خمسة، مثلي».

«اخرس!»، قال صوتٌ من الظلام، متذمرًا.

قضمتُ جوزَ الهند وسط سكونٍ عجيبٍ.

حدَّقتُ بقوة بالسواد، لكنَّني لم استطع تمييز أي شيء.

قال الصوت مكررًا: «إنَّه رجلٌ. هل جاء ليعيش معنا؟».

كان صوتًا أجش، بداخله شيءٌ ما -نوعٌ من صفيرٍ حادٍّ- أذهلتني غرابته؛ على أن نطقه باللغة الإنجليزية كان، ويا للغرابة، جيِّدًا.

نظر الرجل/القرد نحوي كأنَّما يتوقَّع شيئًا. أدركتُ أنَّ التوقُّف كان استجوابيًّا، فقلتُ: «جاء ليعيش معكَ».

«إنَّه رجلٌ. يجب أن يتعلَّم القانون».

بدأتُ أميِّز الآن السواد الداكن في السواد، تخطيط غامض لشخص أحدب. ثم لاحظتُ أنَّ فتحة المكان مظلمة بوجود رأسين أسودين آخرين. أحكمتُ قبضتي على عصاي.

كرَّر الكائن الواقف في الظلام بنبرة أعلى: «قُل الكلمات». لقد فاتني ملاحظته الأخيرة. «لا تمشِ على أطرافِك الأربعة؛ هذا هو القانون»، ثم كرَّر العبارة بنوعٍ من الغناء.

شعرتُ بالحيرة.

«قُلْ الكلمات»، ردَّد الرجل/القرد، كما ردَّدتْ الكائنات عند المدخل، مع تهديدٍ في نبرة أصواتهم.

أدركتُ أنَّني يجب أن أكرِّر هذه الصيغة الغبيَّة؛ ثم بدأتْ أكثر المراسم جنونًا. بدأ الصوت في الظلام يرتِّل ترنيمة مجنونة، سطرًا تِلْوَ الآخر، وأنا والبقية علينا تكراره. وكانوا، في أثناء ذلك، يتمايلون من جانبٍ إلى آخر بأغرب طريقة، ويضربون بأيديهم على ركبهم؛ وفعلتُ مثلهم. كان بإمكاني أن أتخيَّل أنَّني ميتٌ بالفعل وفي عالم آخر. ذلك الكوخ المظلِم، تلك الأشكال القاتمة البشعة، تتأرجَّح هنا وهناك في بصيصٍ من الضوء، ويتمايلون جميعًا في انسجامٍ، وهم يرددون:

«لا تمشِ على أطرافِك الأربعة؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟

«لا تمتص الشراب؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟

«لا تأكل السمك أو اللحم؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟

«لا تمزِّق لحاءَ الأشجار بالمخالب؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟

«لا تطارد رجالًا آخرين؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟».

وهكذا من حظر هذه الأعمال الحمقاء، إلى حظر ما اعتقدتُ آنذاك أنَّه الأكثر جنونًا، والأكثر استحالة، والأكثر بذاءة، يمكن للمرء أن يتخيَّلها. انتابنا نوعٌ من الحماس الإيقاعي؛ تمايلنا وتأرجحنا أسرع وأسرع، ونحن نردِّد هذا القانون المدهش. انتقلتْ لي ظاهريًّا عدوى هؤلاء المتوحشين؛ لكن الضحك والاشمئزاز كان يتصارعان في أعماقي. رددنا قائمة طويلة من المحظورات، ثم تحوَّلت الترانيم إلى صيغة جديدة.

«يملك بيت الألم.

«يملك اليد التي تصنع.

«يملك اليد التي تجرح.

«يملك اليد التي تُشفي».

وهكذا، سلسلة طويلة أخرى، معظمها عبارة عن ثرثرة غير مفهومة تمامًا بالنسبة لي عنه، أيًّا

من كان. كان بإمكاني أن أتخيَّل أنَّه حلمٌ، لكنَّني لم أسمع أبدًا أيَّ ترانيم في حلمٍ.

أنشدنا: «يملك وميض البرق». «يملك البحر المالح العميق».

خطرت في بالي فكرةٌ خيالية؛ أنَّ مورو، بعد تحويل هؤلاء البشر إلى حيواناتٍ، أدخل إلى عقولهم المتقزِّمة نوعًا من تأليه نفسه. ومع ذلك، كنتُ على دراية تامة بتلك الأسنان البيضاء والمخالب القوية الموجودة حولي، فلم أتوقَّف عن الإنشاد.

«يملك النجوم في السماء».

انتهت الأنشودة أخيرًا. رأيتُ وجه الرجل/القرد يلمع من العرق، وبعد أن اعتادتْ عيناي على الظلام، رأيتُ بوضوحٍ أكبر الهيئة التي صدر منها الصوتُ عند الزاوية. كان حجمه حجمَ رجلٍ، لكنَّه مغطًّى بشعرٍ رماديٍّ باهتٍ، يشبه تقريبًا الشعر الذي يُغطي كلاب «سكي تيريير». ما هو؟ وما هؤلاء جميعًا؟ تخيَّل نفسك محاطًا بأبشع المعاقين والمهاويس الذين يمكنكَ تصوُّرهم، كي تفهم بعض مشاعري في ظلِّ وجود هذه الرسوم الكاريكاتورية البشعة للإنسانية حولي.

قال الرجل/القرد: «إنَّه رجل-خمسة، رجل-خمسة، رجل-خمسة مثلي».

مددتُ يدي. مال المخلوق الرمادي الواقف عند الزاوية إلى الأمام.

وقال: «لا تمشِ على أطرافِكَ الأربعة؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟».

أخرج مخلبًا مشوَّهًا بشكلٍ غريبٍ، وأمسك بأصابعي. كان يماثل تقريبًا حافر غزالٍ، مصنوعًا كمخلبٍ. وددتُ لو أصرخ من الدهشة والألم. اقترب بوجهه وأطلَّ على أظافري. وعندما تقدَّم إلى ضوء فتحة الكوخ، رأيتُ باشمئزازٍ مرتجِف أنَّ وجهه لم يكن وجه رجلٍ ولا وحشٍ، وإنَّما مجرد كتلة كثَّة من الشعر الرمادي، وثلاثة أقواسٍ مظللة لتحديد العينين والفم.

قال هذا المخلوق المروع بلحيته المشعرة: «لديه أظافر صغيرة. هذا جيِّد».

ألقى يدي، فأمسكتُ غريزيًّا بعصاي.

قال الرجل/القرد: «نأكل الجذور والأعشاب؛ إنها رغبته هو».

قال المخلوق الرمادي: «أنا القائل بالقانون. هنا يأتي كلُّ من هو جديد ليتعلَّم القانون. أنا أجلس في الظلام وأقول القانون».

قال أحد الوحوش عند المدخل: «هذا صحيحٌ».

«الشر هو عقوبة من يخالف القانون. لا أحد يهرب».

«لا أحد يهرب»، قال البشر الحيوانات، وهم ينظرون خفية بعضهم إلى بعضٍ.

«لا أحد، لا أحد»، قال الرجل/القرد، «لا يهرب. انظر! أنا فعلت شيئًا صغيرًا مرة، شيئًا خاطئًا. فأخذت أثرثر، أثرثر، ثم توقفت عن الكلام. لم يفهم أحدٌ. كواني بالنار، وبقيتْ العلامة في يدي. يا له من عظيم. يا له من جيِّدٍ!».

«لا أحد يهرب»، قال المخلوق الرمادي عند الزاوية.

«لا أحد يهرب»، قال البشر الوحوش، وهم ينظرون بارتيابٍ نحو بعضهم.

قال الكائن الرمادي، القائل بالقانون: «لكلِّ شخصٍ رغبة في عمل شيء سيئ. ما سوف تريده، نحن لا نعرفه؛ لكنَّنا سنعرفه. يريد البعضُ السير وراء الأشياء التي تتحرَّك، أن يشاهد ويتسلَّل وينتظر ويقفز؛ أن يقتل ويعضَّ، يعض عضَّة عميقة وغنية، ليمصَّ الدماء. هذا سيئ. لا تطارد الرجال الآخرين؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟ لا تأكل اللحم أو السمك؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟».

«لا أحد يهرب»، قال وحشٌ مرقَّطٌ يقف عند المدخل.

أكمل الكائن الرمادي القائل بالقانون: «لكلِّ شخصٍ رغبةٌ في عمل شيء سيئ. يريد البعض تمزيق جذور الأشياء بالأسنان واليدين، متشممًا الأرض. هذا سيئ».

قال الرجال عند الباب: «لا أحد يهرب».

«يذهب البعض لخدش الأشجار بمخالبهم؛ ويذهب البعض لنبش قبور الموتى؛ ويذهب البعض للعراك بالجباه أو الأقدام أو المخالب؛ يلدغ البعض فجأة، بدون مناسبة؛ ويحب البعض القذارة».

قال الرجل/القرد، وهو يحكُّ باطن ساقِه: «لا أحد يهرب».

وقال المخلوق/الكسلان الوردي الصغير: «لا أحد يهرب».

«العقوبة قاسية ومؤكدة. ولذلك، تعلَّم القانون. قُلْ الكلمات».

استرسل ثانية في التغنِّي بترنيمة القانون الغريبة، وبدأنا -أنا وكل هذه المخلوقات- ننشد ونتمايل ثانية. ترنَّح رأسي مع هذه الثرثرة، علاوة على رائحة المكان الكريهة؛ لكنَّني واصلتُ، وكلِّي ثقة في إيجاد فرصة ما في أي تطورٍ جديدٍ.

«لا تمشِ على أطرافِكَ الأربعة؛ هذا هو القانون. ألسنا رجالًا؟»

لم تتح لي الضوضاء التي نصنعها الانتباه إلى الجلبة التي تحدث في الخارج، إلى أن قام أحدهم -أعتقد أنَّه كان أحد الرجلين/ الخنزيرين اللذين كنت قد رأيتهما- بدفع رأسه من فوق المخلوق/الكسلان الوردي الصغير، وصاح متحمِّسًا، إلَّا أنني لم أفهم كلامه. اختفى أولئك الذين كانوا يقفون عند فتحة الكوخ. وهرع الرجل/القرد إلى الخارج، وخلفه الكائن الذي كان يجلس في الظلام (لاحظتُ أنَّه مجرد ضخمٍ وأخرق، ومُغطَّى بشعرٍ فضيٍّ)، وتركوني بمفردي. وقبل أن أصل إلى الفتحة سمعتُ نُباح كلب صيدٍ.

في اللحظة التالية، كنتُ أقف خارج الكوخ، وحاجز الكرسي ذو المسمار في يدي، وجميع عضلاتي ترتجف. أمامي كانت ظهورهم الخرقاء، ربما لنحو عشرة من هؤلاء الرجال/ الوحوش، وتخفي عظام أكتافهم جزءًا من رؤوسهم المشوهة. كانوا يلوِّحون بحماسٍ. ومن الأكواخ، لمعتْ في استفسارٍ وجوهٌ أخرى شبه حيوانية. وجَّهتُ بصري في الاتجاه الذي ينظرون نحوه، فرأيت مورو —بهيئته الكئيبة ووجهه الأبيض الفظيع- قادمًا خلال الضباب تحت الأشجار، وراء نهاية ممرِّ الأوكار. كان يمسك بكلب الصيد الذي يقفز، وخلفه، على مقربة منه، مونتجمري وفي يده مسدسٌ.

وقفتُ للحظة مذعورًا. استدرتُ، ورأيتُ الممرَّ خلفي يسدُّه وحشٌ آخر ضخمٌ، وجهه رماديٌّ كبيرٌ وعيناه صغيرتان لامعتان، وكان يتقدَّم نحوي. نظرتُ حولي. رأيتُ على يميني، على مسافة ستة ياردات أمامي، فجوة ضيقة في الجدار الصخري، يتسلَّل خلالها شعاعٌ من الضوء نحو الظلال.

«قف!»، صاح مورو، وأنا أخطو نحو الفجوة؛ ثم «أمسكوا به!».

وعندئذٍ، استدار وجهٌ واحدٌ نحوي، ثم تبِعه الآخرون. ولحُسن الحظ كانت عقولهم الحيوانية بطيئة. دفعتُ بكتفي وحشًا أخرق كان يستدير ليفهم ما يعنيه مورو، وقذفته إلى الأمام ليرتطم بوحشٍ آخر. شعرتُ بيديه تطيران حولي، في محاولة فاشلة لإمساكي. اندفع المخلوق/الكسلان الوردي الصغير نحوي، فجرحتُ وجهه القبيح بالمسمار المثبَّت في عصاي؛ وبعد دقيقة كنتُ أتسلَّق مسارًا جانبيًّا حادًّا يشبه مدخنة مائلة، ويقود إلى خارج الوادي. سمعت نُباحًا خلفي، وصيحات «أمسكوه!»، «اقبضوا عليه!»؛ وظهر المخلوق رمادي الوجه ورائي، وحشر كتلته الضخمة في الصدع. استمر صياحهم «هيا! هيا!». تسلقتُ الصدع الضيق في الصخرة، وخرجتُ إلى الأرض الكبريتية على الجانب الغربي من قرية الرجال/الوحوش.

حالفني الحظُّ بدخول تلك الفجوة؛ فلا بُدَّ أنَّ المدخنة الضيقة، التي تميل إلى أعلى، قد أعاقت أقرب المطاردين. ركضتُ فوق المساحة البيضاء، ثم أسفل منحدرٍ حادٍ، خلال مجموعة متناثرة من الأشجار، حتى وصلت إلى امتدادٍ منخفضٍ من أعواد القصب العالية، واندفعتُ خلالها إلى شجيراتٍ كثيفة داكنة، كانت سوداء ونضِرة تحت قدمي. وبينما كنت أغوص بين أعواد القصب، خرج مطاردي الأول من الفجوة. شققتُ طريقي عبر تلك الشجيرات لعدة دقائق. وسرعان ما امتلأ الهواء خلفي وحولي بصيحاتِ التهديد. سمعتُ ضجيج المطاردين في الفجوة أعلى المنحدر، ثم تحطُّم أعواد القصب، كما كنتُ أسمع بين الحين والآخر صوتَ تهشُّم أحد الأغصان. كانت بعض المخلوقات تزأر كالوحوش المتحمِّسة للإمساك بفريسة. وعلى اليسار، نبح كلبُ الصيد. سمعت مورو ومونتجمري يصيحان في نفس الاتجاه. استدرتُ بحدَّة إلى اليمين. تصورتُ حتى إنَّني سمعتُ مونتجمري يصيح لي كي أنجو بحياتي.

أصبحتْ الأرض تحت قدمي الآن طينيَّة خصبة. كنتُ يائسًا، وتحركتُ بتهوُّرٍ وكافحتُ والطين يصل إلى ركبتي حتى وصلت إلى مسارٍ متعرجٍ بين أعواد القصب الطويلة. تلاشى ضجيج المطاردين على يساري. وفي أحد الأماكن، تقافزتْ أمامي ثلاثة حيوانات غريبة وردية اللون، في مثل حجم القطط. اتخذت هذا المسار إلى أعلى التل، عبر مساحة مفتوحة أخرى مغطَّاة بطبقة بيضاء، ثم غصتُ بين أعواد القصب مرَّة أخرى. وفجأة أصبح الطريق موازيًا لحافة فجوة شديدة الانحدار، ظهرتْ دون سابق إنذارٍ — كان تحوُّل الطريق مفاجئًا وعلى غير توقع. كنتُ لا أزال أركض بكلِّ ما أوتيت من قوة، ولم أرَ هذه الفجوة على الإطلاق، فوجدتني أطير في الهواء.

سقطت بين الأشواك على ساعديّ ورأسي، ونهضتُ بأذنٍ مُمزَّقة ووجهٍ نازفٍ. لقد سقطتُ في وادٍ شديد الانحدار، صخري وشائك، ومليء بغيوم الضباب الذي انجرف نحوي في خصلات؛ ثم وجدت نهيرًا ضيقًا، جاء منه هذا الضباب متعرجًا في المنتصف. أدهشني هذا الضباب الرقيق في وهج ضوء النهار؛ ولكن لم يكن لديَّ وقتٌ كافٍ لأقف متسائلًا. استدرتُ يمينًا، في اتجاه مجرى النهير، على أمل أن أصل إلى البحر في هذا الاتجاه، وبالتالي ينفتح أمامي الطريق للانتحار غرقًا. لم اكتشف سوى في وقتٍ لاحقٍ أنَّ عصاي ذات المسمار وقعت مني عندما سقطتُ.

بدأت مساحة الوادي تضيق الآن. خطوتُ بلا مبالاة إلى الجدول المائي، ثم قفزتُ خارجًا بأقصى سرعة لأنَّ المياه كانت تغلي تقريبًا. لاحظتُ أيضًا طبقة كبريتية رقيقة من الزبد تنجرف فوق مياهه المتموجة. شاهدتُ توًا منعطفًا في الوادي، ولم يكن الأفق الأزرق واضحًا. كانت الشمس تلقي بأشعتها على جوانب لا تُعدُّ ولا تُحصى للبحر القريب. رأيتُ موتي أمامي؛ لكني كنتُ ساخنًا وألهث، والدم الدافئ يسري بلطفٍ من وجهي إلى عروقي.

شعرتُ أيضًا بأكثر من لمسة ابتهاجٍ، لأنَّني تمكَّنتُ من الابتعاد عمن يطاردونني. لم أعد أفكر في الانتحار غرقًا. حدَّقت بالطريق الذي جئتُ منه.

وقفتُ أنصت السمع. كان الهواء ساكنًا تمامًا، باستثناء طنين البعوض وأصوات بعض الحشرات الصغيرة التي تقفز بين الأشواك. ثم سمعتُ نُباح كلبٍ، خافتًا جدًّا، وأصواتًا، وثرثرة وتمتمة، وضربة سوط، وأصواتًا. علتْ الأصوات، ثم خفتت ثانية. تراجع الضجيج في اتجاه الجدول المائي، ثم تلاشى. توقفتْ المطاردة لفترة؛ على أنَّني عرفت الآن حجم المساعدة التي يمكنني أن آمل في الحصول عليها من البشر/الوحوش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(13)

التفاوض

استدرتُ ثانية، واتجهتُ نحو البحر. وجدتُ الجدول المائي الساخن يتسع إلى رمالٍ ضحلة مليئة بالأعشاب؛ وتسببتْ خطواتي في ظهور العديد من السرطانات، والمخلوقات الطويلة متعددة الأرجل. مشيتُ إلى حافة الماء المالح، وعندئذٍ شعرتُ بالأمان. استدرتُ ووقفتُ محدِّقًا، ويداي على خاصرتي، في المساحة الخضراء الكثيفة خلفي، التي يقطعها الوادي المشبَّع بالبخار كأنَّه صدعٌ ينفث دخانًا. بيدَ أنَّ الإثارة كانت تملؤني وكنتُ يائسًا ألَّا يدركني الموت (وهذا قولٌ صحيحٌ، على الرغم من أنَّ كلَّ من لم يعرف الخطر قد يشكون فيها).

ثم تبادر إلى ذهني أنَّه لا تزال أمامي فرصة واحدة. ما دام مورو ومونتجمري ومن معهم من رُعاع متوحشين طاردوني عبر الجزيرة، ألا يمكنني السير على الشاطئ حتى أصل إلى حظيرتهم، بشكلٍ غيرِ مباشرٍ من الجانب، وأسحب صخرة من الجدار غير مُحكم البناء، وربما أتمكَّن من تحطيم قفل الباب الأصغر، ورؤية ما يمكن أن أجده (سكين، مسدس، أو أي شيء) لمحاربتهم به عندما يعودون؟ إنَّها محاولة، على أيٍّ حالٍ.

ولذا، استدرتُ في اتجاه الغرب، ومشيتُ على طول حافة الماء. ومضتْ شمس الغروب حرارتها الشديدة في عينيّ. وكانت مياه المحيط الهادئ تتموَّج بلطفٍ. الشاطئ الآن في اتجاه الجنوب، وأصبحتْ الشمس على يميني. وفجأة، رأيتُ على بُعدٍ أمامي، أوَّل شخصٍ يخرج من بين الشجيرات، ثم خلفه عدة شخصياتٍ: مورو مع كلبه الرمادي، ثم مونتجمري، وبعدهما اثنان آخران. وعندئذٍ توقفتُ.

رأوني، وبدأوا في الإيماء والتقدُّم. وقفتُ أشاهدهم يقتربون. ركض الرجلان/الوحشان إلى الأمام ليقطعا الطريق أمامي نحو الداخل إلى الشجيرات. جاء مونتجمري، راكضًا أيضًا، نحوي مباشرة. تبِعه مورو بخطواتٍ أبطأ ومعه الكلب.

أفقتُ نفسي أخيرًا من حالة الجمود التي انتابتني، واتجهتُ نحو البحر ودخلتُ مباشرة في الماء. كانت المياه ضحلة جدًّا في البداية. كنتُ على بُعد ثلاثين ياردة قبل أن تصل الأمواج إلى خصري. رأيتُ في العَتَمة مخلوقاتٍ بحرية تعيش بالقرب من الشاطئ، وقد أخذتْ تندفع بعيدًا عن قدمي.

صاح مونتجمري: «ماذا تفعل يا رجل؟».

استدرتُ والمياه تغمر خصري، محدِّقًا إليهم. وقف مونتجمري لاهثًا عند حافة المياه. تورَّد وجهُه من الإجهاد، وانتفخ شعرُه الكتَّاني الطويل حول رأسه، وأظهرتْ شفته السفلية المتدلية عدم انتظام أسنانه. وصل مورو الآن. كان وجهه شاحبًا وصارمًا، والكلبُ في يده ينبح في وجهي. كان مع الرجلين سياطٌ قويةٌ. وعلى بُعدٍ من الشاطئ، وقف الرجلان/الوحشان يحدقان.

قلتُ له: «ماذا أفعل؟ سأقوم بإغراق نفسي».

نظر مونتجمري ومورو إلى بعضهما، وسأل مورو: «لماذا؟».

«لأن هذا أفضل من التعذيب على يديكَ».

قال مونتجمري: «قلتُ لكَ ذلك»، وقال مورو شيئًا بنبرة منخفضة.

سألني مورو: «ماذا يجعلكَ تعتقد أنَّني سأقوم بتعذيبكَ؟».

أجبته: «ما رأيته. «وهؤلاء... هناك».

«اسكت!»، قال مورو، وهو يرفع يده.

قلتُ: «كلا. هم كانوا رجالًا: ما هم الآن؟ على الأقل لن أكون مثلهم».

نظرتُ إلى من يقفون خلف محاوري. كان ملينج، مرافق مونتجمري يقف على الشاطئ، وكذا أحد الوحوش ذوي الأربطة البيضاء الذين كانوا في القارب. ورأيتُ بعيدًا خلفهما، في ظلال الأشجار، الرجل/القرد الصغير، وخلفه بعض الكائنات القاتمة الأخرى.

«من هذه المخلوقات؟» قلتُ، مشيرًا إليها ورافعًا صوتي أكثر حتى يصل إليهم. «كانوا رجالًا، رجالًا مثلك، وأصبتهم بتشوُّهاتٍ حيوانية، رجالًا استعبدتهم، ولا زلت تخاف منهم».

ثم صحتُ: «أنتم يا من تسمعون»، مشيرًا الآن إلى مورو، وبحيث يصل صياحي إلى الرجال/الوحوش «أنتم يا من تسمعون! ألا تروْن أنَّ هذين الرجلين يخافونكم، يفزعون منكم؟ لماذا إذن تخافون منهما؟ أنتم كثيرون...».

«بربك يا بريندك»، صاح مونتجمري، توقف!».

«بريندك!»، صاح مورو.

صاح كلاهما معًا، كأنَّما ليكتما صوتي؛ وخلفهم خفض الرجال/الحيوانات وجوههم إلى أسفل في تعجبٍ، وتدلَّتْ أياديهم المشوَّهة، وانحنت أكتافهم. بدوا، كما تخيَّلتُ، يحاولون فهمي؛ وتصوَّرتُ أنَّهم يحاولون تذكُر أي شيء من ماضيهم البشري.

واصلتُ الصياح، ولا أكاد أتذكر بماذا كنت أصيح - أنَّ مورو ومونتجمري يمكن قتلهما، ويجب عدم الخوف منهما: هذه هي الفكرة الأساسية التي أود وضعها في رؤوس البشر/الحيوانات. رأيتُ الرجلَ ذا العينين الخضراء الذي يرتدي خِرقًا داكنة، وقابلني في مساء وصولي، يخرج من بين الأشجار، وتبعه آخرون، لسماعي بشكلٍ أفضل. توقفتُ أخيرًا كي ألتقت أنفاسي.

قال مورو بصوت رصينٍ: «استمع لي للحظة، ثم قُل ما شئت».

قلتُ: «حسنًا؟».

سعل، فكر، ثم صاح: «باللغة اللاتينية، بريندك! لغتي اللاتينية سيئة مثل لاتينية تلميذٍ في مدرسة؛ وإنَّما حاول أن تفهمني. ثم قال باللاتينية ما ترجمته: «هؤلاء ليسوا رجالًا. إنَّهم حيواناتٌ قمنا بتشريحهم أحياءً. حوَّلناهم إلى بشرٍ». ثم تحوَّل إلى اللغة الإنجليزية: «إنَّها عملية لتحويلهم إلى بشرٍ. سوف أشرح لكَ. تعالَ إلى الشاطئ».

ضحكتُ قائلًا: «يا لها من قصَّة طريفة. إنَّهم يتحدَّثون، ويبنون البيوت. كانوا رجالًا. ليس من المرجح أن آتي إلى الشاطئ».

المياه التي تقع خلفك عميقة، ومليئة بأسماك القرش.

قلت: «وهذا هو طريقي، قصيرٌ وحادٌ. في الوقت الحاضر».

«انتظر دقيقة». أخرج شيئًا من جيبه يلمع في ضوء الشمس، وأسقطه عند قدميه. قال: «هذا مسدسٌ محشو. وسوف يفعل مونتجمري هنا مثلي. والآن سوف نبتعد عن الشاطئ،

إلى المسافة التي ترى أنها آمنة؛ وعندئذٍ تعالَ وخذ المسدسين».

«كلا! يوجد شخصٌ ثالثٌ معكما».

«أريدكَ أن تفكر في الأمر يا بريننديك. بداية، أنا لم أطلب منك أن تأتي إلى هذه الجزيرة. وإذا أردنا إجراء تشريحٍ حيٍّ على بشرٍ، لكنَّا أحضرنا رجالًا، وليس وحوشًا. ثانيًا، كان يمكننا تخديرك الليلة الماضية، إذا أردنا أن نلحق بك أيَّ أذى. وثالثًا، وبعد أن ينتهي الآن ذعرك ويمكنك التفكير قليلًا، هل مونتجمري هنا يرقى إلى الشخصية التي تصوَّرتها عنه؟ لقد طاردناك من أجل مصلحتك؛ فهذه الجزيرة مليئة بظواهر عدائية. وبالإضافة إلى ذلك، لماذا نُطلِق عليكَ النَّار وأنت عرضتَ الآن إغراق نفسك؟».

«لماذا أطلقتَ أتباعَكَ خلفي عندما كنتُ في الكوخ؟».

«كنَّا متأكدين من الإمساك بك، لإبعادك عن الخطر. وبعد ذلك ابتعدنا عن الطريق لمصلحتك».

استغرقتُ في التفكير. بدا ذلك ممكنًا. ثم تذكرتُ شيئًا. قلتُ: «لكنَّني رأيتُ في الحظيرة...».

«ما رأيته كانت البوما».

قال مونتجمري: اسمع يا بريننديك، أنتَ أحمقُ سخيفٌ! أخرج من الماء وخذ المسدسين، وتحدَّث. لا يمكننا أن نفعل أيَّ شيءٍ أكثر مما يمكننا القيام به الآن».

سوف أعترف أنَّني حينذاك، وبالفعل دائمًا، لم أثق في مورو وكنتُ أخشاه؛ لكنَّني شعرتُ أن مونتجمري كان رجلًا يمكنني أن أفهمه.

قلتُ بعد تفكيرٍ: «ابتعدا عن الشاطئ، وارفعا أيديكما إلى أعلى».

«لا يمكن أن تفعل ذلك»، قال مونتجمري مع إيماءة تفسيرية من فوق كتفه. «هذا شيءٌ مهينٌ».

قلتُ: «توجَّها إذن إلى الأشجار، كما يحلو لكما».

قال مونتجمري: «يا لها من طقوسٍ سخيفة لعينة».

استدار كلاهما وواجها المخلوقات الستة أو السبعة البشعة، التي وقفتْ هناك في ضوء الشمس، جامدة، تُلقي بظلالِها وتتحرك؛ ومع ذلك كانت غير واقعية بشكلٍ لا يُصدَّق. ضرب مونتجمري بسوطه ناحيتهم؛ فاستداروا جميعًا على الفور، وفرُّوا في حالةٍ من الهرج والمرج إلى الأشجار. وعندما ابتعد مونتجمري ومورو لمسافة اعتبرتُها كافية، خضتُ في المياه نحو الشاطئ، وأخذتُ المسدسين وفحصتهما. وكي أتأكد من عدم وجود أي قدرٍ من الخداع، أطلقتُ رصاصة على كتلة مستديرة من الحُمم البركانية، وشعرتُ بالارتياح لرؤية الصخرة وهي تتحطَّم والرصاص يتناثر على الشاطئ. على أنَّني ترددتُ للحظة.

وأخيرًا قلتُ: «سوف أخاطر»، ومشيتُ إلى الشاطئ نحوهم، وأنا أمسك بمسدسٍ في كلِّ يدٍ.

قال مورو دون تكلُّف: «هذا أفضل. ها أنت قد أهدرتَ أفضلَ جزءٍ من يومي بخيالِكَ المُرتبك». ومع لمسة من الازدراء أذلَّتني، استدار هو ومونتجمري، وسارا في صمتٍ أمامي.

تراجعتْ زمرة الرجال/الحيوانات، التي كانت لا تزال تتجوَّل، وتوقَّفت ثانية بين الأشجار.

مررتُ عليهم بهدوءٍ قدر الإمكان. بدأ أحدهم يتبعني، لكنَّه تراجع عندما لوَّح مونتجمري بسوطه. أمَّا الباقون، فصمتوا، وهم يشاهدون. ربما كانوا حيواناتٍ في يومٍ ما؛ لكنَّني لم أرَ من قبل حيوانًا يحاول التفكير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(14)

شرح الدكتور مورو

ما أن انتهينا من طعامِنا وشرابِنا، قال د. مورو: «والآن، يا بريندِيك، سوف أشرح لكَ. يجب أن أعترف أنكَ أكثر الضيوف التي استقبلتها ديكتاتورية. وأحذِّركَ أنَّ هذا آخر ما سأفعله لمجاملتك. وإذا هددتَ بالانتحار ثانية، لن أفعل شيئًا، حتى وإن سبَّب لي هذا إزعاجًا شخصيًّا».

جلس على الكرسي القابل للطي، وبين أصابعه البيضاء البارعة نصفُ سيجارٍ. سقط ضوء المصباح المتأرجح على شعره الأبيض. حدَّق من خلال النافذة الصغيرة إلى ضوء النجوم. جلستُ بعيدًا عنه قدر الإمكان، بيننا الطاولة، والمسدسان في متناول يدي. لم يكن مونتجمري حاضرًا؛ لم أكن حريصًا على الوجود مع الاثنين في مثل هذه الغرفة الصغيرة.

قال مورو: «أنت تقرُّ بأنَّ الإنسان الذي شرَّحته حيًّا، كما قلت، لم يكن سوى البوما؟». أخذني لزيارة ذلك الرعب في الغرفة الداخلية، لأتأكد بنفسي أنها كانت البوما وليس إنسانًا.

قلتُ: «إنَّها البوما، ولا تزال على قيد الحياة. لكنَّها مقطوعة ومشوَّهة، وأدعو الرب ألَّا أرى لحمًا حيًّا مرة أخرى. بكلِّ ازدراءٍ...».

قال مورو: «لا تهتم بذلك»؛ «اعفني، على الأقل، من تلك المخاوف الشبابية. كان مونتجمري مثلك تمامًا. أنت تعترف أنَّها البوما. عليك أن تهدأ الآن، بينما ألقي عليك محاضرة فسيولوجية».

بدأ على الفور بنبرة رجلٍ يشعر بالملل الشديد، لكنَّه الآن تحمَّس قليلًا وهو يشرح لي ما يقوم به. كان بسيطًا ومقنِعًا للغاية. ولكن يبدو على صوته، بين الحين والآخر، لمسة من السخرية. وجدتُ نفسي الآن خجِلًا من مواقفنا المتبادلة.

المخلوقات التي رأيتها ليست رجالًا، لم تكن أبدًا رجالًا. كانت حيواناتٍ، حيواناتٍ مؤنسنة، انتصارات التشريح الحي.

قال مورو: «أنت تنسى كلَّ ما يمكن أن يقوم به طبيبٌ ماهرٌ في مجال التشريح الحي مع الكائنات الحية. من ناحيتي، أنا في حيرة. لماذا الأشياء التي قمتُ بها هنا لم يقم أحدٌ بها من قبل. هناك جهودٌ صغيرة بُذِلت، بطبيعة الحال – مثل البتر، وقطع اللسان، والاستئصال. أنت تعرف بالطبع أن حَوَل العين قد يحدث أو يُشفى عن طريق الجراحة؟ ثم في حالات الاستئصال؛ لديك جميع أنواع التغييرات الثانوية، والاضطرابات الصباغية، وتغيير المشاعر، وتغيير إفراز الأنسجة الدهنية. ليس لديَّ شكٌّ في أنَّك سمِعتَ عن هذه الأشياء؟».

قلت: «بالطبع، ولكنَّ مخلوقاتك الكريهة هذه...».

قال وهو يلوِّح بيده تجاهي: «كلُّ شيء في أوانه. أنا في البداية فقط. تلك حالاتٌ تافهة من التغيير. بإمكان الجراحة أن تفعل أشياءً أفضل. هناك بناءٌ، وهناك أيضًا تدميرٌ وتغييرٌ. ربما سمعتَ عن عملية جراحية مشتركة لجأتُ إليها في حالات تدمير الأنف: يُقطع جزءٌ من جلد الجبهة، ويوضع على الأنف، التي تُشفى في الوضع الجديد. هذا هو نوعٌ من تطعيم جزءٍ من الحيوان نفسه في موضعٍ جديدٍ. ويمكن أيضًا التطعيم من موادٍ أمكن الحصول عليها حديثًا من حيوانٍ آخر - حالة الأسنان، على سبيل المثال، ويجري تطعيم الجلد والعظام لتسهيل الشفاء: يضع الجرَّاح في منتصف الجُرح أجزاءً من الجلد مقطوعة من حيوانٍ آخر، أو أجزاءً من العظام من ضحية قُتِلت حديثًا. ربما سمعتَ عن نجاح الجراح

الاسكتلندي هانتر وتجربته على أعناق الثيران؛ ويجدر التفكير أيضًا في تجربة جرذانٍ وحيد القرن من الزواف الجزائريين(4) - وحوش صُنِعت عن طريق نقل قطعة من ذيل فأر عادي إلى أنفه، وتركها تتعافى في هذا الموضع».

قلتُ: «وحوش مصنوعة! تقصد أن تخبرني إذن أن...».

«نعم. هذه المخلوقات التي رأيتها هي حيواناتٌ جرى تشريحها وتحويلها إلى أشكالٍ جديدة. لقد كرَّستُ حياتي إلى ذلك، إلى دراسة ليونة الأشكال الحية. استمرَّت دراستي لسنواتٍ، اكتسبتُ خلالها المعرفة. أراكَ تبدو مرعوبًا، على الرغم من أنَّني لا أخبرك بشيءٍ جديدٍ. يوجد ذلك كلُّه في علم التشريح العملي منذ سنواتٍ، وإنَّما لم يجرؤ أحدٌ على تناوله. ليس الشكل الخارجي للحيوان هو فقط الذي يمكنني تغييره. بل يمكن أن تخضع وظائف الأعضاء، والإيقاع الكيميائي للمخلوق، لتعديلٍ دائمٍ؛ وذلك بوسائلَ لا شكَّ أنَّك تعرفها جيِّدًا مثل التطعيم، وغيره من أساليب التلقيح، بمادة حيَّة أو ميتة. ويُعتبر نقل الدم عملية مماثلة، بدأت بها بالفعل. وهذه كلها حالات معروفة. لكن الأقل منها، وربما الأكثر شمولًا، كانت العمليات التي قام بها أطباء العصور الوسطى الذين صنعوا الأقزام، والمتسولين المعوقين، ووحوش الاستعراضات. ولا تزال بعض بقايا فنونهم يستخدمها بشكلٍ بدائيٍّ بعضُ الشباب من الدجالين أو البهلوانات. يقدم فيكتور هوجو تقييمًا عنهم في روايته «الرجل الذي يضحك». أعتقد أنَّ ما قصدته قد أصبح واضحًا الآن. تبدأ في إدراك إمكانية زرع الأنسجة من جزءٍ من الحيوان في جزءٍ آخر، أو من حيوانٍ إلى آخر؛ ثم إمكانية تغيير تفاعلاته الكيميائية وطرق نموه؛ وتعديل مفاصل أطرافه؛ وفي الواقع، تغيير هيكله الأساسي.

«ومع ذلك، لم يستهدف أحد من الباحثين المعاصرين السعي إلى هذا الفرع الاستثنائي من المعرفة بشكلٍ منهجيٍّ، إلى أن قمتُ أنا بذلك! وقد تحقَّقت بعضُ هذه الأشياء عن طريق استخدام الجراحة كملاذٍ أخيرٍ. وقد ثبت أن معظم الأدلة التي يمكن أن تتبادر إلى ذهنكَ قد حدثت عن طريق الصدفة، من جانب طغاة، ومجرمين، ومربي الخيول والكلاب، وجميع أنواع الرجال غير المُدرَبين وغير المهرة وإنما يسعون إلى تحقيق غاياتهم الآنية المباشرة. وكنت أنا أوَّل من يتناول هذه المسألة، مسلحًا بالجراحة المُعقمة وبالمعرفة العلمية بقوانين النمو. على أنَّني أتصور أنَّها لا بُدَّ أن مورست من قبل في الخفاء. هنا مخلوقاتٌ مثل التوائم السيامية، وفي أقبية محاكم التفتيش. لا شكَّ أنَّ هدفهم الرئيس كان مبتكرات التعذيب، لكن بعض المحققين على الأقل كانت لديهم لمسة من الفضول العلمي».

قلتُ: «لكنَّ هذه الأشياء، هذه الحيوانات، تتحدث!».

قال إنَّ هذا صحيحٌ، وأخذ يتحدث عن أن إمكانية التشريح الحي لا تتوقف عند مجرد التحوُّل الجسماني. يمكن تعليم الخنزير؛ ذلك أن بنيته العقلية أقل تحديدًا من بنيته الجسمانية. ونحن نجد في علم التنويم المغناطيسي، الآخذ في النمو، ما يعِد بإمكانية استبدال الغرائز القديمة المتأصلة؛ وذلك عن طريق اقتراحات جديدة، أو تطعيم أفكارٍ جديدة أو إحلالها محل الأفكار الثابتة الموروثة. وقال إنَّ ما نسميه تربية أخلاقية هو بالفعل تعديل مصطنَع وانحرافٌ في الغريزة؛ يمكن تدريب القسوة لتصبح شجاعة التضحية بالنفس، وتدريب الحياة الجنسية المكبوتة لتصبح مشاعر دينية. واستمرَّ موضحًا الفارق الكبير بين الإنسان والقرد وهو يكمن في الحنجرة، في عدم القدرة على التأطير الدقيق لمختلف الرموز الصوتية التي يمكن من خلالها استدامة الفكر. لم اتفق معه في ذلك، لكنه رفض اعتراضي بفظاظة، وكرَّر أنَّه على حقٍ، واستمر يحكي عن عمله.

سألته عن سبب اتخاذه الشكل البشري كنموذجٍ. فقد بدا لي حينذاك، ولا يزال يبدو لي الآن، أنَّه اختيارٌ ينمُّ عن شرٍّ غريبٍ.

اعترف أنَّه اختار ذلك الشكل مصادفة. «ربما كان يمكنني العمل على تشكيل الأغنام على هيئة حيوان اللاما، واللاما على هيئة الأغنام. أتصور أنَّ هناك شيئًا في شكل الإنسان يجذب الميل الفني في العقل على نحوٍ أكثر قوة من أي شكلٍ حيوانيٍّ آخر. لكنَّ عملي لم يقتصر على التحويل إلى البشر. مرة أو مرتين...». ظلَّ صامتًا، ربما لدقيقة. «يا لتلك السنوات! كيف أنَّها مرَّت هكذا! وهنا أهدرت يومًا في إنقاذ حياتك، والآن أهدر ساعة لأشرح ما أقوم به!».

قلتُ: «لكنَّني لا زلت لا أفهم. ما تبريرُكَ لإلحاق كلِّ هذا الألم بالكائنات؟ الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبرر لي التشريح الحي هو تطبيق...».

قال: «بالضبط. لكن تكويني، كما ترى، مختلفٌ. نحن نختلف في طريقة تفكيرنا. أنت تتبنَّى المادية».

«أنا لستُ ماديًّا». قلتُ غاضبًا.

«من وجهة نظري... من وجهة نظري أنَّ مسألة الألم هذه هي التي تفرقنا. ما دمتَ تشمئز من رؤية الألم أو سماعه، وما دمتَ مدفوعًا بآلامكَ الخاصة، وما دام الألم يشكِّل أساس تصوراتك عن الخطية، ... فإنني أقول لك إنَّك حيوانٌ، تفكر على نحو أقل تشوشًا بقليلٍ مما يشعر به حيوان. هذا الألم...».

هززتُ كتفي ضجِرًا من هذا السفسطة.

«أوه، لكنَّ الألم شيءٌ ضئيلٌ! فالعقل المنفتح حقًا على ما نتعلمه من العلم، يرى أنَّ الألم شيءٌ ضئيلٌ. قد يوجد الألم في هذا الكوكب الصغير، هذه البقعة من الغبار الكوني، التي لم تكن مرئية قبل وقتٍ طويلٍ من البلوغ لأقرب نجم – وربما، كما أقول، لا يوجد في أيِّ مكانٍ آخر هذا الشيء الذي يُسمَّى الألم. لكنا نتحسَّس طريقنا نحو القوانين – لماذا، حتى على هذه الأرض، حتى بين الكائنات الحية، ماذا يعني الألم؟».

وبينما كان يتحدث، سحب مطواة صغيرة من جيبه، وفتح نصلَها الأصغر، ونقل كرسيه حتى أتمكن من رؤية فخذه. ثم تخيَّر الموقع عمدًا، ودفع النصل في ساقه ثم سحبه.

قال: «لا شكَّ أنت رأيتَ ذلك من قبل. وخزة الدبوس غير ضارة، لكنَّها توضح ماذا؟ ما من حاجة للقدرة على الألم في العضلات، ما من ألمٍ - لكنَّه موجود بدرجة قليلة في الجلد، هناك أماكن متفرقة فقط على الفخذ قادرة على الشعور بالألم. الألم ببساطة هو مستشارنا الطبي الأساسي لتحذيرنا وتحفيزنا. لا تشعر كلُّ مناطق اللحم الحي بالألم؛ ولا كل الأعصاب، ولا حتى كل الأعصاب الحسيَّة. لا يوجد أيُّ ألمٍ، ألمٍ حقيقي، تشعر به في العصب البصري. إذا جرحت العصب البصري، يمكنك رؤية مجرد ومضات من الضوء، تمامًا مثل إصابة العصب السمعي بمرضٍ، لا نشعر سوى بطنينٍ في آذاننا. لا تشعر النباتات أو الحيوانات الدُنيا بالألم. وربما حيوانات مثل نجم البحر وجراد البحر لا تشعر بالألم على الإطلاق. أمَّا البشر، كلما زاد ذكاؤهم، يصبحون أكثر ذكاءً في رؤية رفاههم، كما يقل احتياجهم إلى ما يدفعهم للابتعاد عن الخطر. لم أسمع بعد عن شيء عديم الفائدة لا يختفي من الوجود، عاجلًا أو آجلًا، نتيجة التطور. أليس كذلك؟ وتنتفي الحاجة إلى الألم.

«كما أنَّني رجلٌ متدينٌ، يا بريnديك، مثل أي رجل عاقل. ربما، كما أتصوَّر، أنَّني درستُ أكثر منكَ ما صنعه خالق هذا العالم؛ كرستُ حياتي بحثًا في قوانينه، في حين كنتَ أنتَ -وأنا أفهم ذلك– تمارس جمع الفراشات. أقول لك إنَّ الألم واللذة لا علاقة لهما بالجنة أو الجحيم. وهذا التركيز الذي وضعه الرجال والنساء على اللذة والألم، يا بريnديك، هو دليلٌ على حيوانيتنا؛ الحيوانية المتأصلة فينا! الألم، الألم واللذة، نشعر بهما لأننا فقط نتلوى في

التراب.

«وكما ترى، لقد سرت في هذا البحث بالطريقة التي قادني إليها. هذه هي الطريقة الوحيدة التي سمعتُ بها عن أسلوب البحث الحقيقي. طرحت سؤالًا، وابتكرت طريقة للحصول على إجابة، وحصلتُ على سؤالٍ جديدٍ. هل كان هذا أو ذاك ممكنًا؟ لا يمكنك أن تتخيل ما يعنيه هذا للباحث، يا له من شغفٍ فكريٍّ! لا يمكنك أن تتخيل البهجة غير المتحيزة والغريبة تجاه تلك الرغبات الفكرية! لم يعُد الشيء الذي أمامك حيوانًا، مخلوقًا زميلًا، بل مشكلة! ألم التعاطف، كل ما أعرفه عنه هو أنَّني أتذكره كشيء عانيتُ منه لسنواتٍ. كنت أريد -وهو الشيء الوحيد الذي أردته- أن أعرف حد الليونة الأقصى في مخلوقٍ حيٍّ».

قلتُ: «لكنَّ هذا شيءٌ بغيضٌ...».

واصل كلامه قائلًا: «لم تزعجني أبدًا أخلاقيات الموضوع، حتى يومنا هذا. فدراسة الطبيعة تجعل الإنسان في النهاية عديم الشفقة مثل الطبيعة. لقد واصلتُ بحثي دون مراعاة أي شيء آخر؛ وتمتلئ الأكواخ هناك بنتائج عملي. لقد مرَّ ما يقرب من أحد عشر عامًا منذ أن جئنا إلى هنا –أنا، ومونتجمري، وستة من الكاناكا(5). أتذكر سكون الجزيرة الأخضر، والمحيط الخالي حولنا، كما لو كان بالأمس. بدا المكان في انتظاري.

«أنزلنا المؤن وبنينا البيت. وشيَّد الكاناكا بعضَ الأكواخ بالقرب من الوادي الضيق. بدأتُ العمل هنا على ما أحضرته معي. حدثتْ بعضُ الأشياء البغيضة في البداية. بدأتُ مع خروفٍ، وقتلته بعد يومٍ ونصفٍ بزلة من المشرط. أخذتُ خروفًا آخر، وصنعتُ شيئًا من الألم والخوف، وتركته مقيدًا ليتعافى. وعندما انتهيتُ من العمل، بدا بشريًّا تمامًا؛ لكنني شعرتُ باستياءٍ عندما ذهبت إليه، فقد تذكرني، وكان رعبه يفوق الخيال، ولم تتجاوز فطنته ذكاء خروف. وكلَّما نظرتُ إليه، وجدته أكثر حماقة، إلى أن أرحته أخيرًا من بؤسه. تفتقر هذه الحيوانات إلى الشجاعة، ويسكنها الخوف، ويحركها الألم، وليس لديها طاقة قتالية تؤهلها لمواجهة العذاب، ولذا، فهي لا تصلح لتحويلها إلى بشرٍ.

«بدأتُ أعمل، بعد ذلك، على غوريلا. كنتُ أعمل بحرصٍ لا نهائي؛ وبعد أن تغلبتُ على الصعوبات التي واجهتني، تمكنتُ من تحويلها إلى إنسانٍ. أمضيتُ أسبوعًا كاملًا، ليلًا ونهارًا، في عملية الصبِّ. كان المخ أساسًا هو ما يحتاج إلى صبٍّ؛ فلا بُدَّ من إضافة الكثير، وتغيير الكثير. وعندما انتهيتُ منه، تصوَّرتُ أنَّه عيِّنة جيِّدة من النوع الزنجي، وكان مستلقيًا وعليه ضمادات، ومقيَّدًا بلا حراكٍ أمامي. وما إن اطمأننت على حياته، تركته ودخلت هذه الغرفة ثانية، لأجد مونتجمري في حالة تشبه حالتك. فقد سمع صرخاتٍ خلال تحوُّل الشيء إلى إنسانٍ، صرخاتٍ مثل تلك التي أزعجتك. لم تكن ثقتي فيه كاملة في البداية. أدرك الكاناكا أيضًا شيئًا من الكائن، وكانوا يموتون رعبًا عند رؤيتي. نجحتُ في جذب مونتجمري إلى صفِّي، بشكلٍ ما، وواجهنا معًا أصعب مهمة وهي منع الكاناكا من الفرار. لكنَّهم هربوا في النهاية، وبالتالي فقدنا اليخت. قضيتُ أيامًا عديدة في تعليم الوحش -ثلاثة أو أربعة أشهر- علَّمته بدائيات اللغة الإنجليزية، وأعطيته أفكارًا عن العدِّ، وعلَّمته حتى أن يقرأ الأبجدية. لكنَّه كان بطيئًا، على الرغم من أنَّني قابلتُ أغبياءَ أبطأ. بدأ وعقله خالٍ تمامًا كورقة بيضاء؛ ولم يكن في ذهنه ذكرياتٌ عمَّا كان عليه. وعندما شُفيت ندوبه تمامًا، ولم يعُد يشعر بأيِّ ألمٍ أو خشونة، وأصبح قادرًا على التحدُّث قليلًا، أخذته إلى هناك وقدمته إلى الكاناكا على أنَّه أحد المسافرين خلسة المثيرين للاهتمام.

«كانوا خائفين منه بشكلٍ فظيعٍ في البداية، وهو بالأحرى ما أزعجني؛ لأنَّني كنتُ مغرورًا به. لكنَّه كان لطيفًا وبائسًا، وبالتالي تعاملوا معه بمرور الوقت وتولوا تعليمه. كان سريع التعلم، ويجيد التقليد والتأقلم، كما بنى لنفسه كوخًا بدا لي أفضل من أكواخهم. كان أحد الرجال تبشيريًّا إلى حدٍّ ما، وقام بتعليم ذلك الشيء القراءة، أو على الأقل تمييز الحروف،

كما أعطاه بعض الأفكار البدائية عن الأخلاق. وإنما يبدو أنَّ عادات الوحش لم تكن كلها جيدة.

«استرحتُ من العمل لعدة أيام، وكان في ذهني كتابة تقييمٍ عن الموضوع برمته لإيقاظ علماء وظائف الأعضاء الإنجليز. وجدتُ الكائن يجلس القرفصاء فوق شجرة، ويتمتم مع اثنين من الكاناكا اللذيْن يغيظانه. هددته، وأخبرته بعدم إنسانية هذا الفِعل، وأثرت شعوره بالخجل. عُدتُ إلى المنزل وأنا عاقد العزم على تحسين عملي قبل أن أرسله إلى إنجلترا. أخذ عملي يتحسَّن، لكنَّ الأمور كانت تتراجع ثانية بشكلٍ أو آخر؛ كانت طبيعته الحيوانية تنمو ثانية يومًا بعد يومٍ. لكنَّني لا زلتُ أقصد أن أفعل الأشياء بطريقة أفضل. أعني أن أتغلَّب على جوانب النقص. هذه البوما...

«هذه هي القصَّة. مات جميع فتيان كاناكا، سقط أحدهم من على متن الزورق البخاري، ومات أحدهم من جرحٍ في كعبه أُصيب بالتسمُّم من عصارة إحدى النباتات. وهرب ثلاثة في اليخت، وأفترض، بل آمل، أنهم غرقوا. أما سادسهم، فقد قُتل. حسنًا، لقد استبدلتهم. وتصرف مونتجمري مثلك تمامًا في البداية، ثم...».

قلتُ بحدَّة: «ماذا حدث للسادس؟ الكاناكا الذي قُتل؟».

أجاب مترددًا: «في الحقيقة، بعد أن أصبح لديَّ عددٌ من المخلوقات البشرية، قمتُ بعمل شيء...».

قلت: «نعم؟».

«لقد قُتِل».

قلت: «لا أفهم؛ هل تعني...».

«نعم... لقد قتل ذلك الكائن الكاناكا. كما قتل العديد من الأشياء الأخرى التي تمكَّن من الإمساك بها. طاردناه لعدة أيامي. لقد أصبح طليقًا مصادفة، لم أقصد أبدًا إطلاق سراحه، لم يكن عملي عليه قد انتهى بعد، كانت مجرد تجربة. كان شيئًا بلا أطرافٍ، ووجه فظيع، يتلوَّى على الأرض بطريقة ثعبانية. كان قويًّا جدًّا، وغاضبًا من شدة الألم الذي يعانيه. ظلَّ كامنًا في الغابة لعدة أيام، إلى أن استطعنا اصطياده؛ ثم تمكن من الهرب وشقَّ طريقه نحو الجزء الشمالي من الجزيرة، فقسمنا أنفسنا لتضييق الخناق عليه. أصر مونتجمري أن يأتي معي. كان الرجل يحمل بندقية، وعندما وجدنا جثته، كانت إحدى ماسورتي البندقية ملتوية على شكل حرف S، وشبه مقضومة. أطلق مونتجمري النار على الكائن. وبعد ذلك تمسكت بالمُثل الإنسانية العليا، باستثناء بعض الأشياء الصغيرة».

صمت مورو، وجلستُ في صمتٍ أراقب وجهه.

«وهكذا واصلتُ عملي لمدة عشرين عامًا في المجمل –منها تسع سنوات في إنجلترا– ولا يزال هناك شيءٌ في كلِّ ما أقوم به يهزمني، يجعلني غير راضٍ، يتحدَّاني لبذل المزيد من الجهد. ارتفع أحيانًا فوق مستواي، وأهبط تحته أحيانًا، لكنَّني أعجز دائمًا عن تحقيق الأشياء التي أحلم بها. يمكنني الآن الحصول على شكل الإنسان بسهولة تقريبًا؛ بحيث يتسم بالليونة والرشاقة، أو الاكتناز والقوة؛ وعادة ما توجد مشكلة في اليدين والمخالب، الأشياء المؤلمة، التي لا أجرؤ على تشكيلها بحرية. أما في عملية التطعيم وإعادة التشكيل بإتقانٍ، يتطلَّب الأمر التعامل مع المخ، وهنا تكمن مشكلتي، غالبًا ما يكون الذكاء متدنيًّا بشكلٍ غريبٍ، مع نهايات خالية غير مبررة وفجوات غير متوقعة. وأكثر ما يزعجني هو شيءٌ لا أستطيع أن ألمسه، موجود في مكانٍ ما -لا أستطيع تحديده- في مركز المشاعر.

وأعني بذلك التوق الشديد، والغرائز، والرغبات التي تضر بالإنسانية، مخزن خفي غريب قد ينفجر فجأة ويغمر الكائن كله بالغضب، أو الكراهية، أو الخوف. قد تبدو لك الكائنات التي أقوم بتشكيلها غريبة وعجيبة، بمجرد أن تبدأ في مراقبتها؛ بينما تبدو لي، بعد أن أنتهي من عملي، كائنات بشرية بلا منازع. على أن هذا الاقتناع يتلاشى بعد ذلك، عندما أراقبهم. تبدأ سمة حيوانية في الظهور، ثم تتلوها سمة أخرى، محدِّقة بوجهي. لكنَّني سأنتصر! في كل مرة أغمس فيها مخلوقًا حيًّا في حمامٍ من الألم الحارق أقول «سأحرق هذه المرة كافة السمات الحيوانية؛ سأشكل هذه المرة كائنًا عقلانيًّا!». على أي حال، ماذا تعني عشر سنوات؟ لقد استغرق وصول البشر إلى هذا الشكل الإنساني مئات الآلاف». صمت يفكر بشكل قاتم، ثم قال: «لكنني اقترب من الاستقرار. هذه البوما...»، صمت ثانية ثم قال: «ثم يعودون ثانية؛ بمجرد أن أبعد يدي عنهم، يبدأ الوحش في الزحف عائدًا، ويبدأ في تأكيد نفسه مرة أخرى». صمت طويل آخر.

قلت: «ثم تأخذ الأشياء التي تصنعها إلى تلك الأوكار؟».

«يذهبون. أطردهم عندما أبدأ في الشعور بالوحش داخلهم. وهم حاليًا يتجوَّلون هناك. يفزعون جميعًا مني ومن هذا البيت. يوجد نوعٌ من الاستهزاء بالإنسانية هناك. مونتجمري يعرف ذلك، لأنَّه يتدخل في شؤونهم. لقد درَّب واحدًا أو اثنين منهم لخدمتنا. إنَّه يشعر بالخجل من ذلك، لكنني أعتقد أنه شبه مُعجَب ببعض تلك الوحوش. هذا شأنه، وليس شأني. لكنهم يثيرون اشمئزازي لأنَّهم يشعرونني بالفشل. أنا لا أهتم بهم. وأتصور أنهم يسيرون على خطى ماناكا التبشيري، ويقلِّدون نوع الحياة العقلانية بطريقة ساخرة. يا لهم من وحوشٍ بائسين! هناك شيءٌ يسمونه القانون. ينشدون ترانيم حول «من يملك كلَّ شيء». يبنون أوكارهم، ويجمعون الفاكهة، ويقتلعون الأعشاب، وحتى يتزوجون. لكنني أرى أرواحهم خلال ذلك كله، لا شيء سوى أرواح وحوش، ووحوش فانية، غضب وشهوات للعيش وإشباع أنفسهم. ومع ذلك، فهم يتسمون بالغرابة والتعقيد، مثل كل شيء حي آخر. يوجد داخلهم نوعٌ من الكفاح للترقي، بعضه غرور وبعضه مشاعر جنسية غائبة، وبعضه فضول ضائع. إنهم يسخرون مني. لديَّ بعض الأمل في هذه البوما. لقد عملتُ بجدٍّ في رأسها ومخها...

«والآن»، وقف قائلًا بعد فجوة صمتٍ طويلة، تابع خلالها كلٌّ منَّا أفكاره الخاصة، «ما رأيكَ؟ هل ما زلت تخاف مني؟».

نظرتُ إليه، ولم أرَ سوى رجلٍ أبيض الوجه، شعره أبيض، وعينيه هادئة. باستثناء صفائه، ولمسة الجمال التي نتجتْ عن هدوئه، وبنيته الرائعة، ربما كان مقبولًا بين مئة من السادة كبار السن الآخرين الموسرين. ثم انتابتني رعشة. وعلى سبيل الإجابة على سؤاله الثاني، سلَّمته أحد المسدسين.

قال: «احتفظ به»، وتثاءب. وقف يحدق إليَّ للحظة، وابتسم. قال: «مرَّ عليك يومان حافلان بالأحداث. أنصحكَ أن تنام. وأنا سعيدٌ أنَّ كلَّ شيء أصبح واضحًا. ليلة سعيدة». أخذ يتأمَّلني للحظة، ثم خرج من الباب الداخلي.

أغلقتُ البابَ الخارجي بالمفتاح على الفور. جلستُ ثانية. بقيتُ جالسًا لفترة وأنا في حالة مزاجية راكدة. كنتُ مرهقًا للغاية؛ شعوريًا، وعقليًّا، وجسديًّا، بحيث عجزتُ عن التفكير فيما قاله. حدَّقت إلى النافذة السوداء مثل العين. وأخيرًا، تمكَّنتُ بعد جهدٍ من إطفاء الضوء، وقفزتُ داخل الأرجوحة الشبكية. وسرعان ما غلبني النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(15)

البشر/الحيوانات

استيقظتُ مبكرًا. ومنذ استيقاظي وتفسير مورو واضحٌ ومحددٌ تمامًا في ذهني. نزلتُ من الأرجوحة الشبكية، وذهبتُ إلى الباب لأؤكد لنفسي أنَّ البابَ مغلقٌ بالمفتاح. تحقَّقتُ من قضيب النافذة، ووجدتُ أنَّه محكمُ الإغلاق. لم تكن تلك المخلوقات الشبيهة بالإنسان سوى وحوشٍ همجية، مجرد تقليدٍ زائفٍ بشعٍ للبشر، وهي الحقيقة التي ملأتني بشعورٍ غامضٍ من عدم اليقين تجاه إمكانياتها، التي كانت أسوأ بكثير من أيِّ خوفٍ واضحٍ.

سمعتُ نقرًا على الباب، وصوت ملينج بلهجته اللزجة وهو يتحدث. وضعت أحد المسدسين في جيبي (ويدي فوقه)، ثم فتحتُ له الباب.

«صباح الخير، يا سيدي»، قال وهو يدخل حاملًا وجبة الإفطار العشبية المعتادة، وأرنبًا سيئ الطهي. دخل مونتجمري بعده، والتقطتْ عيناه المتجولة موضع يدي، فلوى شفتيه مبتسمًا.

كانت البوما تستريح متماثلة للشفاء في ذلك اليوم؛ لكن مورو، الذي كان متفردًا في عاداته، لم ينضم إلينا. تحدثتُ مع مونتجمري لتوضيح أفكاري حول طريقة حياة أولئك البشر الحيوانات. ألححتُ، على وجه الخصوص، حول معرفة كيفية منعِ هؤلاء الوحوش اللا إنسانيين من الهجوم على مورو ومونتجمري ومن تمزيق بعضها بعضًا. وقد أوضح لي أنَّ سلامته النسبية هو ومورو ترجع إلى النطاق العقلي المحدود لهذه الوحوش. فعلى الرغم من ذكائهم المتزايد وميل غرائزهم الحيوانية إلى الظهور ثانية، فإن لديهم بعضَ الأفكار الثابتة التي زرعها مورو في أذهانهم، وحدَّتْ من خيالِهم تمامًا. فقد قام مورو بتنويمهم مغناطيسيًّا، وقال لهم إنَّ بعضَ الأشياء مستحيلة، وبعضَ الأشياء لا ينبغي القيام بها؛ وبقيت هذه المحظورات محفورة في نسيج عقولهم، بما يمنع أي إمكانية للعصيان أو النزاع.

على أنَّ هناك البعض من تلك الأشياء بقيت في حالة أقل استقرارًا، وظلَّتْ فيها الغريزة القديمة في حالة حربٍ مع ما يريده مورو. هناك سلسلة من التعليمات، التي تُسمَّى القانون (كنتُ قد سمعتهم بالفعل وهم ينشدونها)، تضرب بجذورها عميقًا داخل أذهانهم، فضلًا عن الرغبة الشديدة المتمردة في طبيعتهم الحيوانية. هذا القانون الذي اكتشفتُ أنَّهم يرددونه دائمًا، كما يخالفونه دائمًا. وقد أولى كلٌّ من مونتجمري ومورو اهتمامًا خاصًّا لإبقائهم لا يعرفون مذاق الدماء؛ إذ كانا يخشيان ما يمكن أن يسفر عنه ذلك. كما أخبرني مونتجمري أنَّ القانون يضعف بشكلٍ غريبٍ مع حلول الليل، لا سيَّما بين البشر/الوحوش من فصيلة القطط، وعندئذٍ يصبح الحيوان في أقوى حالاته؛ حيث تبرز لديه روح المغامرة عند الغسق، وتتملَّكه الجرأة على القيام بأشياءٍ لا يحلم أبدًا بالقيام بها خلال النهار. ومن هنا أدركتُ لماذا طاردني الرجل/الفهد ليلة وصولي. وخلال الأيام المبكرة من إقامتي، لم يخرقوا القانون إلَّا بشكلٍ خفيٍّ وبعد حلول الظلام. أما في ضوء النهار، فقد ساد جوٌّ عامٌّ من الاحترام لمحظوراته المختلفة.

وربما يجدر هنا أن أوضح بعض الحقائق العامة عن الجزيرة والبشر/الحيوانات. كانت حدود الجزيرة متعرِّجة وتقع منخفضة على بحرٍ واسعٍ، وتبلغ مساحتها الإجمالية، على ما أعتقد، سبعة أو ثمانية أميال مربعة.(6) كانت الجزيرة بركانية في الأصل، لكنَّ الشعابَ والصخورَ المرجانية تحدُّها الآن من ثلاثة جوانب؛ ولم يتبقَّ من آثار بقايا القوى التي أنشأتها من زمنٍ بعيدٍ سوى بعض المنافذ البركانية في اتجاه الشمال، علاوة على ينبوعٍ حارٍ. يمكن الشعور،

بين الحين والآخر، بهزَّة زلزال خفيفة، وأحيانًا يتصاعد صاخبًا برجٌ من الدخان نتيجة هبات البخار؛ وهذا كل شيء. أبلغني مونتجمري أنَّ عددَ سكان الجزيرة الآن يزيد على ستين من تلك الابتكارات الغريبة لفنون مورو، دون احتساب المسوخ الصغيرة التي عاشت بين الشجيرات ولم تتخذ شكلًا بشريًا. قام مورو بتحويل ما يقرب من مائة وعشرين كائنًا، لكن العديد لقى حتفه، وشهد آخرون نهاياتٍ عنيفة، مثل الكائن المتلوي، عديم الأقدام، الذي أخبرني به. وردًّا على سؤالي، قال مونتجمري إنَّهم يتناسلون بالفعل، لكن ذريتَّهم تموت عمومًا. وإذا عاش منهم أحدٌ، يأخذه مورو ويحوِّله إلى الشكل البشري. ولا يوجد دليلٌ على توارث الخصائص البشرية المكتسبة. كانت الإناث أقل عددًا من الذكور، ومعرضات لكثير من الاضطهاد الخفي، على الرغم من الزواج الأحادي الذي يفرضه القانون.

يُعد ضربًا من ضروب المستحيل أن أصِف هؤلاء البشر/الوحوش بالتفصيل، فلم تتدرب عيناي على التحقُّق من التفاصيل، كما أنَّني مع الأسف لا أعرف شيئًا عن الرسم. على أنَّ أكثر ما يلفت النظر، ربما في مظهرهم العام، هو عدم التناسب بين أرجل تلك المخلوقات وطول أجسادهم. ومع ذلك، ولأنَّ فكرتنا عن الجمال نسبية، اعتادتْ عيني على أشكالِهم، بل واقتنعتُ في النهاية أنَّ فخذي الطويلين بشعان. وهناك نقطة أخرى، وهي امتداد رؤوسهم إلى الأمام، والاعوجاج الغريب للعمود الفقري على نحوٍ غير آدمي. حتى الرجل/القرد كان يفتقر إلى ذلك المنحنى المتعرج الداخلي للظهر، الذي يضفي رشاقة على الجسم البشري. كانت أكتاف معظمهم تنحني بشكلٍ قبيحٍ، وتتدلَّى أذرعُهم القصيرة بضعفٍ على جوانبهم. تميَّز عددٌ قليلٌ منهم بشعرٍ واضحٍ، على الأقل حتى نهاية وجودي على الجزيرة.

أما التشوُّه التالي الأكثر وضوحًا، فكان في وجوههم: بروز أحد الفكين لديهم جميعًا على وجه التقريب، وتشوُّه حول الأذنين، وأنوف كبيرة وناتئة، وشعر كثيف خشن، وعينان غالبًا بلونٍ غريبٍ أو في وضعٍ غريبٍ. ليس بإمكانهم الضحك، على الرغم من أنَّ الرجل/القرد كان يثرثر بضحكاتٍ مكبوتة. وفي ما عدا هذه السمات العامة، كانت القواسم المشتركة في رؤوسهم قليلة، حيث حافظ كلُّ نوعٍ منهم على صفات النوع الذي ينتمي إليه: فقد شوَّهت الوصمة البشرية النمر، أو الثور، أو الخنزير، أو أي حيوان أو حيوانات أخرى، لكنَّها لم تُخفِ أصل الحيوان. تباينت الأصوات أيضًا إلى حدٍّ كبيرٍ. وكانت الأيدي مشوَّهة دائمًا؛ إذ على الرغم من أن بعضهم فاجأني بمظهرٍ بشريٍّ غير متوقَع، عانوا جميعًا تقريبًا من نقصٍ في عدد الأصابع، وسوء مظهر أظافر أصابعهم، وافتقارهم إلى أي إحساسٍ باللمس.

كان الرجل/الفهد ورجلٌ مصنوعٌ من ضبع وخنزير هما أكثر البشر/الحيوانات شراسة. لكن الأضخم منهما كانت الكائنات/الثور الثلاثة التي سحبت القارب. ثم يأتي ملينج، الرجل ذو الشعر الفضي، وهو أيضًا من منشدي القانون، وعبارة عن كائنٍ خليطٍ من القرد والماعز ويشبه ساتير في الأساطير اليونانية. هناك أيضًا ثلاثة رجال/خنازير، وامرأة/خنزير، وكائن فرس/وحيد القرن، والعديد من الإناث الأخريات اللواتي لم أكن متأكدًا من أصولهن الحيوانية. كان هناك العديد من كائنات/الذئب، والدب/الثور، والرجل/الكلب من نوع سان برنار. لقد سبق أن وصفت الرجل/القرد، وهناك امرأة عجوز بغيضة (كريهة الرائحة) مُشكّلة من ثعلبة ودبٍّ، وكرهتها منذ البداية. وقيل إنَّها من المتحمسين للقانون. أما الكائنات صغيرة الحجم، فكانت حيواناتٍ شابة مرقطة، وحيوان الكسلان الصغير الخاص بي. وأعتقد هذا يكفي من الكتالوج.

كنتُ في البداية ارتعد خوفًا من هؤلاء المتوحشين، إذ شعرتُ بشدَّة أنَّهم لا يزالون حيوانات. لكنَّني اعتدتُ قليلًا، دون وعيٍّ، على فكرة وجودهم، إضافة إلى أنَّني تأثَّرتُ بموقف مونتجمري تجاههم. لقد عاش معهم لفترة طويلة، بحيث أصبح يعتبرهم بشرًا طبيعيين تقريبًا. بدت أيامه في لندن ماضيًا مجيدًا، يستحيل تكراره. كان يذهب إلى مدينة أريكا(7) مرة واحدة في السنة أو نحو ذلك، لمقابلة وكيل أعمال مورو، وهو تاجرٌ في

الحيوانات هناك. وبالكاد ما كان يلتقي بأفضل أنواع البشر في تلك القرية البحرية من الإسبان الهجين. قال لي إنَّ الرجال على متن السفينة بدوا له في البداية بالغرابة نفسها التي بدت لي عندما رأيت الرجال/الحيوانات: أرجلهم طويلة بشكلٍ غير طبيعي، وجوه مسطحة، جباه بارزة، مريبون، خطيرون، وقساة. وفي واقع الأمر، لم يكن يحب البشر؛ لكن قلبه رقَّ لي، كما يعتقد، ولذلك أنقذ حياتي. تصورت حتى، حينذاك، أنَّه يتمتع بشفقة خفية تجاه بعض هؤلاء المتوحشين المتحوِّلين، وبتعاطفٍ شرسٍ مع بعض طرقهم، لكنه حاول أن يحجبه عني في البداية.

أما ملينج/ الرجل أسود الوجه الأسود، مرافق مونتجمري، وأوَّل الرجال/الوحوش الذين قابلتهم- فلم يكن يعيش مع الآخرين في جميع أنحاء الجزيرة، بل في بيتٍ صغيرٍ عند الجزء الخلفي من الحظيرة. بالكاد ما كان الرجل/القرد ذكيًا، لكنَّه أكثر سهولة في الانقياد، وأكثر شبهًا بالإنسان من جميع البشر/الحيوانات؛ كما درَّبه مونتجمري على إعداد الطعام، وبالطبع أداء جميع المهام المنزلية المطلوبة. لقد كان تذكارًا معقَّدًا لمهارة مورو الرهيبة- دب، يحمل سمات الكلب والثور، وواحدٌ من أفضل كائناته إتقانًا. كان يعامل مونتجمري بحنانٍ وتفانٍ غريبين. وكان مونتجمري يهتم به أحيانًا، ويربت عليه، ويطلق عليه تسميات تنطوي على المزاح والسخرية، مما يجعله يقفز في فرحٍ غامرٍ. بيد أنَّه كان يسيء معاملته أحيانًا، لا سيما تحت تأثير الويسكي؛ فيركله، ويضربه، ويرشقه بالحجارة أو الصمامات الكهربائية المشتعلة. وسواء عامله بشكلٍ جيدٍ أو سيئ، لم يحب شيئًا أكثر من أن يوجد بالقرب منه.

أقول إنَّني أصبحت معتادًا على البشر/الحيوانات، وأن آلاف الأشياء التي بدت غير طبيعية ومثيرة للاشمئزاز، سرعان ما أصبحتُ أجدها طبيعية وعادية. أفترض أنَّ كلَّ شيءٍ في الوجود يستمدُّ مظهره، تقريبًا، من البيئة المحيطة. كان مونتجمري ومورو يتسمان بالغرابة والتفرد الشديدين، بما جعل انطباعاتي العامة عن البشرية ملتبسة بعض الشيء. فعندما كنتُ أرى أحد كائنات البشر/الثور الخرقاء، الذين جرُّوا القارب إلى الجزيرة وهم يخطون بين الشجيرات، أجدني أتساءل، في محاولة جاهدة للتذكر، عن مدى اختلافه عن بعض البشر الحقيقيين الفلاحين وهم يعودون إلى بيوتهم بعد يوم عملٍ شاقٍ؛ أو عندما ألتقي مع المرأة الخليط بين الدب والثعلب، ذات الوجه الماكر، كنت أراها بشرية ماكرة، بل أتخيل أنني التقيتُ بها من قبل في إحدى الطرق الفرعية بإحدى المدن.

ومع ذلك، كانت السمة الحيوانية تظهر أمامي، بين الحين والآخر، بما لا يدع مجالًا للشك أو الإنكار. رجلٌ قبيحُ المظهر، متوحشٌ بشريٌّ أحدب يجلس القرفصاء في فتحة أحد الأوكار، يمد ذراعيه متثائبًا، بحيث تظهر فجأة أسنانه القاطعة ذات الحواف الشبيه بالمقص، وأنيابه الشبيهة بالسيف، حادة ولامعة كالسكين. أو عندما ألقي نظرة خاطفة جريئة، في أحد المسارات الضيقة، نحو أعين هيئة أنثوية رشيقة ذات ضمادات بيضاء، فإنني أرى فجأة (باشمئزازٍ متشنج) أنَّ حدقتي عينيها عبارة عن شقٍّ طولي، أو أحدق إلى ظفرها المقوس الذي تحمل به الأربطة البيضاء عديمة الشكل التي تغطيها. والشيء الطريف، بالمناسبة، وأنا عاجزٌ عن تفسيره تمامًا، أنَّ هذه المخلوقات الغريبة –وأعني الإناث- كانت تشعر، في الأيام الأولى من إقامتي، بشعورٍ غريزيٍّ بقبحهن المنفر، ولذلك يُظهِرن مزيدًا من الاهتمام البشري باللياقة والذوق في ملابسهن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(16)

البشر/الحيوانات يتذوَّقون الدماء

لقد خرجتُ عن مسار قصَّتي، وذلك نتيجة قلَّة خبرتي في الكتابة.

بعد أن تناولتُ الإفطار مع مونتجمري، أخذني في جولة خلال الجزيرة لرؤية فُوَّهة البركان ومصدر الينبوع الساخن، الذي خضتُ مياهه الحارقة في اليوم السابق. حمل كِلانا السياط والمسدسات المحشوة. وخلال عبورِنا غابة مورقة، سمعنا أنينَ أرنبٍ. توقفنا واستمعنا. لم نسمع أيَّ شيء أكثر؛ فواصلنا طريقنا، ونسينا ذلك الصوت. لفت مونتجمري نظري إلى بعض الحيوانات الوردية الصغيرة ذات الساقين الخلفيتين الطويلتين، التي تتقافز خلال الشجيرات. أخبرني أنَّها مخلوقاتٌ مصنوعة من نسل البشر/الحيوانات الذين اخترعهم مورو. كان يتصوَّر أنَّها قد تصلح كطعامٍ، لكن عادتها في التهام صغارها، مثلها مثل الأرانب، قد حالت دون تحقيق هذا الغرض. كنتُ قد واجهتُ بالفعل بعض هذه المخلوقات: مرَّة واحدة خلال فراري تحت ضوء القمر من الرجل/الفهد، ومرَّة خلال مطاردة مورو لي في اليوم السابق. ومن قبيل المصادفة، قفز أحد تلك الكائنات ليتجنبنا في حفرة نتجت عن اقتلاع الرياح لشجرة. استطعنا الإمساك بالكائن قبل أن يتمكَّن من تخليص نفسه. بصق الكائن مثل القط، وخدش وركل بقوة بساقيه الخلفيتين، وحاول لدغنا؛ لكن أسنانه كانت ضعيفة جدًّا بحيث لم تسبِّب أكثر من عضَّة غير مؤلمة. بدا لي مخلوقًا صغيرًا جدًّا؛ وأخبرني مونتجمري أنَّ هذا الكائن لا يدمِّر العشب أبدًا عندما يحفر جحوره، وأنَّه نظيفٌ للغاية في عاداته. أعتقد أنَّه قد يبدو بديلًا مناسبًا للأرنب المعتاد في حدائق البشر.

رأينا أيضًا في طريقِنا جذعَ شجرة تقشَّر لحاؤه إلى شرائط طويلة وانشقَّت بعمقٍ. لفت مونتجمري انتباهي إليه، قائلًا: «لا تمز لحاء الأشجار بالمخالب، هذا هو القانون. يلتزم الكثيرون منهم بالقانون!» أعتقد أنَّنا التقينا بعد ذلك بالساتير والرجل/القرد. كان الساتير تجسيدًا لذكرى كلاسيكية عند مورو، تعبيرات وجهه تشبه الغنم، مثل النوع العبري الفظ؛ وصوته عبارة عن ثغاءٍ أجش، وأطرافه السفلية شنيعة. كان يقضم قشرة فاكهة تشبه قرن الفول، أثناء مروره بنا. قام الاثنان بتحية مونتجمري.

قالا: «أهلًا، بالرجل الآخر حامل السوط!»

وقال مونتجمري: «هناك ثالثٌ الآن يحمل سوطًا. عليكما توخي الحذر!».

قال الرجل/القرد: «أليس مصنوعًا؟ قال... قال إنَّه مصنوعٌ».

نظر الرجل/الساتير نحوي متفحصًا، ثم قال: «الرجل الثالث ذو السوط، إنَّه هو من كان يسير باكيًا في البحر، ووجهه أبيض نحيل».

قال مونتجمري: «لديه سوطٌ طويلٌ رفيعٌ».

قال ساتير: «بالأمس كان ينزف ويبكي. أنت لا تنزف ولا تبكي أبدًا. السيد لا ينزف ولا يبكي».

قال مونتجمري: «يا لكَ من متسولٍ أحمق! سوف تنزف وتبكي إن لم تنتبه!».

قال الرجل/القرد: «لديه خمس أصابع، إنَّه رجلٌ/خمس مثلي».

«هيا بنا، يا برينديك»، قال مونتجمري، وهو يمسك بذراعي. مشيتُ معه.

وقف ساتير والرجل/القرد يراقبانا، ويتبادلان الملاحظات.

قال ساتير: «إنَّه لا يقول أيَّ شيء؛ والرجال لديهم أصواتٌ».

وقال القرد/الرجل: «طلب مني طعامًا بالأمس. لم يكن يعرف».

ثم أخذا يتحدثان بصوتٍ غير مسموعٍ؛ وسمعت ساتير يضحك.

وجدنا في طريق عودتنا الأرنب الميت. تمزَّق جسم هذا الوحش الأحمر الصغير البائس إلى أشلاء، واتخذت العديد من أضلاعه اللون الأبيض بعد أن تجرَّدت من اللحم، وتعرَّض عموده الفقري بالتأكيد إلى القضم.

توقف مونتجمري قائلًا: «يا إلهي!»، ثم انحنى والتقط بعض الفقرات المهشَّمة لفحصها من كثبٍ. كرّر: «يا إلهي! ما معنى هذا؟».

قلتُ بعد فترة صمتٍ: «يبدو أنَّ أحد الحيوانات التي تحتفظان بها، وكان في الأصل من آكلي اللحوم، قد تذكَّر عاداته القديمة. لقد افترس هذا العمود الفقري».

وقف يحدِّق، ووجهه أبيض، وشفته ملتوية، ثم قال ببطءٍ: «هذا لا يعجبني».

قلتُ: «لقد رأيتُ شيئًا مماثلًا في اليوم الأول لوصولي هنا».

«اللعنة! ماذا رأيتَ؟».

«رأيتُ أرنبًا منزوع الرأس».

«اليوم الذي جئتَ فيه إلى هنا؟».

«اليوم الذي جئتُ فيه إلى هنا. بين الشجيرات، في الجزء الخلفي من الحظيرة، عندما خرجتُ في المساء. كان رأسه منزوعًا تمامًا».

أطلق صفيرًا طويلًا منخفضًا.

«كما أنَّني أخمِّن الحيوان الذي فعل ذلك. إنه مجرد شكٍّ، كما تعلم. قبل أن أصل إلى الأرنب، رأيتُ أحدَ وحوشك يشرب من جدول المياه».

«هل كان يشرب عن طريق الامتصاص؟».

«نعم»

««لا تمتص الشراب، هذا هو القانون». يهتم الوحوش بالقانون، هه؟ عندما لا يكون مورو موجودًا بالقرب منهم!».

«كان هو نفسه الوحش الذي طاردني».

قال مونتجمري: «بالطبع، إنَّها ببساطة طريقة الحيوانات آكلة اللحوم. يشربون بعد القتل. إنَّه مذاق الدماء، كما تعلم. كيف كان الوحش؟ هل يمكنك أن تتعرَّف عليه ثانية؟». وقف يحدِّق بالمكان بجوار الأرنب الميت، وعيناه تتجوَّلان بين الظلال، ومساحات الخُضرة، وأماكن الاختباء، وكمائن الغابة التي تحيط بنا. قال ثانية: «مذاق الدم».

أخرج مسدسه وفحص الخراطيش فيه ثم أعاده إلى مكانه. ثم أخذ يسحب شفته المتدلية.

قلتُ: «أعتقد أنَّ بإمكاني التعرُّف على الوحش ثانية. لقد أفقدته صوابه. لا بُدَّ من وجود كدمة واضحة على جبهته».

فقال مونتجمري: «وعندئذٍ علينا أن نثبت أنَّه قتل الأرنب. لكمْ أتمنَّى لو أنني لم أحضر هذه الأشياء هنا».

واصلتُ السير، لكنَّه ظلَّ هناك يفكر في الأرنب المشوَّه وهو في حيرة من أمره. واصلتُ سيري لمسافة، ووجدتُ بقايا الأرنب مخبَّأة.

ناديته: «تعالَ هنا!».

أفاق من استغراقه في التفكير، وجاء نحوي. قال -في ما يقرب من الهمس- «أتعرف، من المفترض أنَّ لديهم جميعًا فكرة ثابتة ضد تناول أي شيء يتحرك على الأرض. وإذا تذوق أحد الوحوش الدماء مصادفة...»

مشينا في طريقنا صامتين. قال لنفسه: «تُرى ماذا حدث». وبعد فترة صمتٍ أخرى: «لقد قمتُ بشيءٍ أحمق في أحد الأيام الماضية؛ أوضحت لخادمي كيف يسلخ الأرنب ويطبخه. يا للغرابة، رأيته يلعق يديه بعد أن انتهى، لم يخطر ببالي أبدًا».

ثم قال: «يجب أن نضع حدًّا لهذه المسألة. يجب أن أخبر مورو».

ولم يستطع التفكير في أي شيء آخر خلال رحلة عودتنا.

أخذ مورو الأمر بجدية أكثر من مونتجمري، ومن نافلة القول إنَّني تأثَّرتُ بالذعر الذي بدا عليهما بوضوحٍ.

قال مورو: «يجب أن نضرب مثالًا. ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنَّ الرجل/الفهد هو المذنب. وإنَّما كيف يمكننا إثبات ذلك؟ ليتك احتفظتَ، يا مونتجمري، بمذاق اللحم لنفسك، تجنُّبًا لهذه المستجدات المثيرة. فقد نجد أنفسنا الآن في حالة من الفوضى».

قال مونتجمري: «لقد تصرفتُ بحماقة. لكن هذا ما حدث. وأنت قلتَ لي إنَّ بإمكاني التهامهم».

قال مورو: «يجب أن نتدبَّر الأمرَ في الحال. وأعتقد إذا حدث أي شيء، يمكن أن يتدبَّر ملينج أمر نفسه، أليس كذلك؟».

قال مونتجمري: «لستُ متأكدًا من ملينج؛ أعتقد أنَّني لم أعرفه حق معرفة».

بعد الظهر، مشيتُ مع مورو ومونتجمري وملينج عبر الجزيرة، في اتجاه الأكواخ التي تقع في الوادي الضيق. كنَّا نحن الثلاثة مسلَّحين؛ حمل ملينج البلطة الصغيرة التي يستخدمها في تقطيع الحطب، وبعض الأسلاك الملفوفة. وحمل مورو على كتفه بوقًا ضخمًا من أبواق رعاة البقر.

قال مونتجمري: «سترى تجمُّعًا من البشر/الحيوانات. مشهدٌ جميلٌ!».

لم ينطق مورو بكلمة في الطريق، لكن تعبير وجهه المحاط بالشعر الأبيض الكثيف كان ينمُّ عن التكدر.

عبرنا الوادي الضيق، بما في ذلك الجدول المائي الذي يتصاعد البخار من مياهه الساخنة، واتخذنا مسارًا متعرجًا بين أجمة الخيزران حتى وصلنا إلى منطقة واسعة مُغطَّاة بمادة صفراء كثيفة كالبودرة، والتي تصوَّرتُ أنَّها مادة الكبريت. بدتْ مياه البحر لامعة فوق ضَفَّة

مليئة بالأعشاب. وصلنا إلى مدرجٍ طبيعيٍّ ضحلٍ، وهنا توقفنا نحن الأربعة. نفخ مورو في البوق، وقطع سكونَ النوم في فترة الظهيرة الاستوائية. لا بُدَّ أنَّه يتمتَّع برئتين قويتين. أخذتْ صيحة النداء ترتفع وسط أصدائها، إلى أن اخترقت شدتُها الأذان.

قال مورو: «آه! إنَّهم قادمون»، وترك البوق المنحني يتدلَّى ثانية إلى جانبه.

وعلى الفور سمعنا أصواتَ تهشُّمٍ تأتي من خلال أعواد القصب الأصفر، ومجموعة أصواتٍ تأتي من الغابة الخضراء الكثيفة التي تحيط بالمستنقع الذي خضته في اليوم السابق. ثم ظهرت، من ثلاثة أو أربعة مواقع على حافة المنطقة الكبريتية، تلك الهيئات البشعة للبشر/الحيوانات وهي تندفع مسرعة نحونا. لم أستطع منع شعوري بالرعب الذي أخذ يزحف داخلي عندما رأيتُ أوَّل واحدٍ منهم، ثم الثاني وهما يهرولان ويخرجان من بين الأشجار أو أعواد القصب، ويسيران بتثاقلٍ فوق التراب الساخن. لكنَّ مورو ومونتجمري وقفا بهدوءٍ شديدٍ، ووقفتُ بجانبهما بحكم الضرورة.

كان الساتير أول من وصل إلينا. بدا غريبًا للغاية، حيث ألقى بظلاله وأخذ يقلِّب التراب بحوافره. تبعه من الأجمة كائنٌ وحشيٌّ أخرق، يجمع بين الحصان ووحيد القرن، ويمضغ القش؛ ثم ظهرت المرأة/الخنازير وامرأتان/ذئبتان؛ وبعد ذلك ظهرت العجوز القبيحة التي تجمع بين الثعلب والدب، بعينيها الحمراء في وجهها المتوهج حمرة؛ ثم توالى ظهور الآخرين مسرعين في شغفٍ. وخلال تقدمهم نحونا، أخذوا ينحنون أمام مورو وينشدون، دونما تناغمٍ، فقراتٍ من النصف الأخير من ترتيلة القانون: «يملك اليد التي تجرح. يملك اليد التي تشفي»، وهكذا دواليك. وما أن أصبحوا على مسافة ربَّما ثلاثين ياردة، توقَّفوا وركعوا على الركبتين والمرفقين، وبدأوا في قذف التراب الأبيض على رؤوسهم.

لكَ أن تتخيَّل المشهد، إن استطعت! ثلاثة رجالٍ يرتدون ملابس زرقاء، ومعنا مرافقُنا المشوَّه أسود الوجه، نقف في مساحة واسعة من الغبار الأصفر الذي تضيئه أشعة الشمس تحت السماء الزرقاء الحارقة، وتحيط بنا دائرةٌ من المسوخ الجاثمة على الأرض، وتؤدي تلك الحركات، يشبه بعضهم البشر، ما عدا في تعبيرهم وإيماءاتهم الخفيَّة؛ ويشبه بعضهم المُقعَدين، وبعضهم مشوَّه بشكلٍ غريبٍ، بحيث لا يشبه شيئًا سوى سكان أكثر أحلامنا وحشية. وخلفهم، تمتدُّ خطوطُ أجمة عيدان القصب في أحد الاتجاهات، ويمتدُّ تشابُك كثيفٍ من أشجار النخيل في الاتجاه الآخر، بما يفصلنا عن الوادي الضيق والأكواخ؛ وفي اتجاه الشمال، يمتدُّ الأفق الضبابي للمحيط الهادئ.

أخذ مورو يعِدُّ الحيوانات: «اثنان وستون، ثلاثة وستون. لا زال هناك أربعة غائبين».

قلتُ: «أنا لا أرى الرجل/الفهد».

نفخ مورو في البوق الضخم ثانية؛ ومع صوته، أخذ جميع البشر/الحيوانات يتلوون ويزحفون في التراب. خرج الرجل/الفهد متسلِّلًا من بين أعواد القصب، وانحنى بالقرب من الأرض، وحاول الانضمام إلى دائرة إلقاء التراب خلف مورو. كان الرجل/القرد الصغير آخر من وصل من البشر/الحيوانات. وقد نظرتُ إليه شذرًا الحيوانات التي وصلت مبكرًا، لأنَّها كانت تشعر بالحرارة والإرهاق من طول فترة تمرُّغِها في التراب.

قال مورو بصوتٍ عالٍ وحازمٍ: «توقَّفوا!»؛ وعندئذٍ جلس البشر/الحيوانات مرة أخرى، واستراحوا من تعبدهم.

قال مورو: «أين القائل بالقانون؟». حنى الوحش ذو الشعر الرمادي وجهه في التراب.

«قُلْ الكلمات!»، قال مورو.

وعلى الفور، بدأ الجميع ينشدون ثانية ترانيمهم الغريبة؛ وهم راكعون، ويتمايلون من جانبٍ إلى آخر، ويبعثرون الكبريت بأيديهم –باليد اليمنى أولًا وبها نفخة من التراب، ثم اليد اليسرى- وعندما وصلوا إلى عبارة:«لا تأكل السمك أو اللحم؛ هذا هو القانون»، رفع مورو يده البيضاء النحيلة.

صاح: «توقفوا!». خيَّم صمتٌ مطلقٌ عليهم جميعًا.

أعتقد أنَّهم يعرفون جميعًا ما سيحدث، ويخشونه. نظرتُ إلى وجوههم الغريبة. عندما رأيتً نكوصَهم والرعب المستتر في أعينهم اللامعة، تساءلت كيف تصوَّرتُ أنَّهم بشرٌ؟!

قال مورو: «لقد حدث خرق لهذا القانون!».

قال الكائن مجهول الهوية ذو الشعر الفضي: «لا أحد يهرب». وكرَّر البشر/الحيوانات الراكعين في دائرة: «لا أحد يهرب».

«من هو؟»، صاح مورو وهو ينظر إلى وجوههم، ويضرب سوطه في الهواء. تخيَّلتُ أنَّ الضبع/الخنزير بدا كئيبًا، وكذلك الرجل/الفهد. توقَّف مورو أمام هذا المخلوق، الذي انكمش وذاكرته مملوءة بخوفٍ من عذابٍ لا نهائي.

«من هو؟»، كرَّر مورو، بصوتٍ كالرعد.

أنشد القائل بالقانون: «الشرُّ هو عقوبة من يخالف القانون».

نظر مورو في أعين الرجل الفهد، وبدا كأنَّه يسحب روح الكائن.

قال مورو: «من يخرق القانون...»، وهو يبعد عينيه عن ضحيته، ويتجه نحونا (بدا لي أنَّ هناك لمسة ابتهاجٍ في صوته).

صاحوا جميعًا مرددين: «يعود إلى بيت الألم، يعود إلى بيت الألم، أيُّها السيد!».

كرَّر الرجل/القرد: «يعود إلى بيت الألم، يعود إلى بيت الألم»، كما لو أنَّ الفكرة أعجبته.

قال مورو: «هل تسمع؟»، وهو يستدير ناحية الجاني، «صديقي... هالو!».

نهض الرجل/الفهد واقفًا على ركبتيه، بعد أن ابتعدت عنه أعين مورو؛ والآن، اتَّقدتْ عيناه بالشرِّ، ولمعت أنيابه الضخمة من تحت شفتيه المتعرجتين، وقفز نحو مُعَذِبه. كنتُ مقتنِعًا بأنَّ جنونَ الخوف الذي لا يرحم هو وحده الذي يمكن أن يدفع إلى هذا الهجوم. بدأت دائرة الستين وحشًا تنهض من حولنا. أخرجتُ مسدسي. اصطدم الرجل/الفهد بمورو، رأيتُ مورو يترنَّح من ضربة الرجل/الفهد. اشتدَّ صراخٌ وعويلٌ غاضبٌ حولنا. كان الجميع يتحرَّكون بسرعة. ظننتُ للحظة أنَّه تمرُّدٌ عامٌ. مرَّ وجه الرجل/الفهد الغاضب أمامي، بينما كان ملينج يطارده. رأيتُ أعين الضبع/الخنزير الصفراء تلمع حماسًا، وبدا من موقفه كأنَّما يفكر في مهاجمتي. حدَّق إليَّ الساتير، أيضًا، من فوق كتف الضبع/الخنزير الأحدب. سمعتُ طلقة مسدس مورو، ورأيتُ الوميض الوردي ينطلق بين الجمع المضطرب. بدا الحشد كلُّه يتأرجح في اتجاه بريق النار، كما وجدتني أنا أيضًا أتأرجح بفِعل مغناطيسية الحركة. وفي الثانية التالية، بدأت أركض ضمن الحشد المضطرب الصارخ، لمطاردة الرجل/الفهد الهارب.

هذا كل ما يمكنني تأكيده. رأيتُ الرجل/الفهد يضرب مورو، ثم بدأ كلُّ شيءٍ يدور حولي إلى أن وجدتني أركض بتهورٍ. كان ملينج متقدمًا، وعلى مسافةٍ قريبة من الهارب. وتركض خلفه النساء/الذئاب في خطواتٍ قافزة كبيرة، وألسنتهن تتدلَّى بالفعل. وخلفهن البشر/الخنازير، يصيحون في حماسٍ؛ والرجلان/الثوران في أربطتهما البيضاء. ثم جاء مورو

وسط مجموعة من البشر/الحيوانات، وقد طارت قبعته المصنوعة من القشّ ذات الحواف العريضة، ومسدسه في يده، وشعره الأبيض الخفيف ينسدل. ركض الضبع/الخنزير بجانبي، مواكبًا خطواتي ويختلس نظراتٍ نحوي من من عينيه الماكرتين؛ ثم جاء الآخرون يثرثرون ويتصايحون خلفنا.

مضى الرجل/الفهد يشق طريقه خلال أعواد القصب الطويلة، التي كانت ترتد إلى الخلف عند مروره وترتطم في وجه ملينج. وجدنا نحن، الذين نركض خلفهم، مسارًا سبق المرور عليه، عندما وصلنا إلى الأجمة. استمرَّت المطاردة خلال الأجمة لمسافة ربع ميلٍ تقريبًا، ثم غصنا في غابة كثيفة، أعاقت حركتنا إلى حدٍّ كبيرٍ، على الرغم من أنَّنا مررنا بها في حشدٍ معًا، كانت أوراق الشجر تضرب وجوهنا، والنباتات المتسلقة اللزجة تمسك بذقوننا من أسفل أو بالكاحلين، والنباتات الشائكة تتعلَّق بنا وتمزِّق ملابسنا وأجسامنا.

قال مورو وهو يلهث أمامي: «لقد خاض هذه المسافة وهو يركض على أطرافه الأربعة».

«لا أحد يهرب»، قال الدب/الذئب وهو يضحك في وجهي ابتهاجًا بالمطاردة. اندفعنا ثانية بين الصخور، ورأينا الهارب أمامنا يركض بخفَّة على أطرافة الأربعة وهو يزمجر نحونا من فوق كتفه. وعندئذٍ عوى الرجال/الذئاب بابتهاجٍ. كان الهارب لا يزال يرتدي ملابسه، وبدا وجهه بشريًّا على مسافة، لكن حركته على أطرافه الأربعة جعلته شبيهًا بالقطط، كما أن التدلِّي الماكر لكتفه يوضح أنَّه حيوانٌ مُطارَد. قفز فوق بعض الشجيرات الشائكة التي تحمل أزهارًا صفراء، واختفى. كان ملينج في منتصف المسافة بيننا وبينه.

لم يعُد معظمنا قادرًا الآن على الركض بالسرعة نفسها التي بدأنا بها المطاردة، وأصبحنا نسير بخطى أطول وأكثر ثباتًا. رأيتُ (ونحن نجتاز المنطقة العراء) أن شكل المطاردة تحوَّل من عمودٍ إلى خطٍ أفقي. لا يزال الضبع/الخنزير يركض بالقرب مني ويراقبني، وبين الحين والآخر يُجعد خطمه بضحكة مزمجرة. عند حافة الصخور، أدرك الرجل/الفهد أنَّه يقترب من اللسان الناتئ الذي طاردني عنده في ليلة وصولي؛ ولذا انعطف إلى منطقة الشجيرات. لكن مونتجمري شهد المناورة، وجعله يستدير ثانية. لقد ركضتُ لاهثًا، وتعثَّرتُ في الصخور، وتمزَّق جسدي من نبات العُليق، وأعاقتني نباتات السرخس وعيدان القصب، خلال مساعدتي في ملاحقة الرجل/الفهد الذي خرق القانون؛ وكان الضبع/الخنزير ضاحكًا بوحشية بجانبي. كنت أترنَّح، رأسي يميل، وقلبي ينبض، ومرهقًا إلى حدٍّ يقارب الموت؛ إلَّا أنني لم أجرؤ على ترك المطاردة، حتى لا أجد نفسي وحيدًا مع هذا الرفيق الرهيب. ترنَّحت على الرغم من التعب اللا نهائي والحرارة الكثيفة لفترة بعد الظهر الاستوائية.

تباطأتْ أخيرًا ضراوة المطاردة؛ حيث حاصرنا الوحش البائس في أحد أركان الجزيرة. قادنا مورو، والسوط في يده، في خطٍ غيرِ منتظمٍ. أخذنا نتقدم ببطءٍ، والجميع يتصايحون، لتشديد الحصار حول ضحيتنا. تسلَّل دون إصدار صوتٍ، ودون أن يراه أحدٌ إلى الشجيرات التي هربت منه فيها عندما طاردني في منتصف الليل.

صاح مورو: «اثبتوا في أماكنكم! اثبتوا في أماكنكم!»، حيث تسللت نهايات الخط حول الشجيرات المتشابكة وطوقت الوحش.

جاء صوت مونتجمري من وراء الغابة: «حذار من الاندفاع!».

كنتُ على المنحدر فوق الشجيرات، بينما سار مونتجمري ومورو على طول الشاطئ في أسفل. شققنا طريقنا ببطءٍ بين شبكة من الفروع والأوراق. كان المُطارَد صامتًا.

انطلق صوت عواء من الرجل/القرد، على مسافة عشرين ياردة تقريبًا ناحية اليمين: «يعود إلى بيت الألم، بيت الألم، بيت الألم!».

عندما سمعتُ ذلك، غفرتُ للمسكين البائس كل ما أثاره داخلي من خوفٍ. سمعتُ تهشُّم الأغصان الصغيرة وحفيف حركة الفروع الرئيسة نتيجة خطوات وحيد القرن/الحصان الثقيلة على يميني. وفجأة رأيتُ المخلوق الذي نطارده؛ كان تحت الشجيرات الغزيرة، في مساحة خضراء مضلعة، وشبه مظلمة. توقفتُ. كان جاثمًا في أصغر مساحة ممكنة، واستدارت عيناه الخضراء اللامعة نحوي.

قد يبدو تناقضًا غريبًا في داخلي -لا يمكنني تفسيره- لكنَّني الآن، عندما رأيتُ المخلوق يقبع هناك في وضعٍ حيوانيٍّ تمامًا، وضوء لامع في عينيه، ووجهه البشري المعيب يشوهه الرعب، أدركت مرة أخرى حقيقة بشريته. سوف يراه مطارديه في لحظة أخرى، ويتغلَّبون عليه، ويمسكون به، ويبدأ مرة أخرى تجربة التعذيب الرهيبة في الحظيرة. وفجأة أخرجتُ مسدسي، ووجَّهته بين عينيه المرتعبتين، وأطلقتُ النار. وعندئذٍ رأى الضبع/الخنزير المخلوق، وألقى بنفسه عليه وهو يصرخ متلهفًا، وغرز أسنانه العطشى في رقبته. كانت كتل الغابة الخضراء تتمايل وتتكسر من حولي، مع اندفاع البشر/الوحوش نحونا. ظهر وجهٌ، ثم وجهٌ آخر.

صاح مورو: «لا تقتله، يا بريناديك! لا تقتله!»، ورأيته ينحني وهو يمرُّ تحت أوراق شجرة السرخس الكبيرة.

وفي اللحظة التالية، كان يُبعِد الضبع/الخنزير بمقبض سوطه؛ وقام هو ومونتجمري بإبعاد البشر،الوحوش آكلي اللحوم المنفعلين، وخاصة مليِنج، عن الجسم الذي لا يزال يرتجف. جاء الكائن الرمادي كثيف الشعر يتشمَّم الجثة تحت ذراعي. تزاحمت الحيوانات الأخرى، في حماستهم الحيوانية، ودفعتني كي تتمكَّن من المشاهدة عن قربٍ.

قال مورو: «لماذا قتلته، يا بريناديك! كنتُ أريده حيًّا».

أجبته: «أنا آسفٌ»، على الرغم من أنَّني لم أكن أسفًا، «إنَّه اندفاع اللحظة». شعرتُ بالغثيان من الإجهاد والإثارة. استدرتُ، وشققتُ طريقي بين البشر/الحيوانات المتزاحمين، وصعدتُ بمفردي أعلى المنحدر، في اتجاه الجزء الأعلى من اللسان. وتحت توجيهات مورو الصارخة، سمعتُ ثلاثة من البشر/الثيران المضمدين بأربطة بيضاء يبدأون في سحب الضحية إلى أسفل، نحو الماء.

كان يُسهل عليَّ الآن أن أنفرد بنفسي. أظهر البشر/الحيوانات فضولًا بشريًّا تمامًا حول الجثة، وتبعوها في زمرة كبيرة، يتشمَّمون ويهدرون، بينما يجرُّها الرجال/الثيران إلى الشاطئ. توجَّهتُ إلى اللسان، وشاهدتُ الرجال/الثيران وهم يحملون الجثة الثقيلة إلى البحر، كانوا يبدون كالظلال السوداء في مواجهة سماء المساء. مرَّت في ذهني موجة من التفكير، أدركتُ خلالها عبثية الأشياء التي يصعب وصفها على الجزيرة. كان يقف على الشاطئ، بين الصخور الموجودة أسفلي، الرجل/القرد، والخنزير/الضبع، والعديد من البشر/الحيوانات الآخرين، يلتفُّون حول مونتجمري ومورو. كانوا جميعًا لا يزالون في أوج حماسهم، وتفيض منهم تعبيراتٌ صاخبة عن ولائهم للقانون؛ ومع ذلك، فقد شعرتُ بتأكيدٍ مطلَق في ذهني أنَّ الخنزير/الضبع كان متورطًا في قتل الأرنب. كنتُ على اقتناعٍ غريبٍ أنَّني أرى أمامي هنا -باستثناء فظاعة المجتمعين وبشاعة أشكالهم– صورة مصغَّرة من توازن الحياة البشرية الكامل، ومجمل التفاعُل بين الغريزة والعقل والمصير في أبسط أشكاله. لقد سقط الرجل/الفهد: هذا هو الفارق الوحيد. يا له من حيوانٍ بائسٍ!

يا لها من حيواناتٍ بائسة! بدأتُ أرى الجانب الوضيع في قسوة مورو. لم أفكر من قبل في حجم الألم والمتاعب التي تعرَّض لها هؤلاء الضحايا المساكين بعد أن خرجوا من تحت أيدي مورو. كنتُ ارتجف رعبًا عندما أفكر في أيام العذاب الفعلي في الحظيرة. على أنَّ

هذا الجزء أصبح يبدو لي الجزء الأقل معاناة. لقد كانوا حيواناتٍ من قبل، تتكيَّف غرائزهم بما يناسب البيئة المحيطة، ويسعدون بحياتهم مثلهم مثل جميع الكائنات الحية. أمَّا الآن، فهم يتعثَّرون في أغلال البشرية، ويعيشون في خوفٍ أبديٍّ، ومكبلون بقانونٍ لا يمكنهم فهمه؛ كان وجودهم البشري الزائف، الذي بدأ بألم العذاب، بمثابة صراعٍ داخليٍّ طويلٍ، ورعبٍ دائم من مورو، ولأجل ماذا؟ لقد كانت الفظاظة المفرطة هي التي حركتني.

لو كان لدى مورو أيُّ هدفٍ عقلاني، لكنتُ تعاطفتُ معه قليلًا على الأقل؛ أنا لستُ شديد الحساسية تجاه مثل هذا الألم، وكان بإمكاني أن أغفر له قليلًا لو كان دافعه مجرد الكراهية، لكنَّه غيرُ مسؤولٍ على الإطلاق، ومستهترٌ تمامًا! لم يكن يدفعه سوى فضوله وأبحاثه المجنونة التي لا هدف لها، تاركًا تلك الكائنات لتعيش سنة أو نحو ذلك، لتكافح وتتخبط وتعاني، وأخيرًا تموت بألمٍ. يا لها من كائناتٍ بائسة، تحركها كراهيتها للحيوان القديم داخلها إلى إزعاج بعضها لبعض، لكن القانون يحول دون دخولها في صراعٍ محتدمٍ قصيرٍ ونهاية حاسمة للعداوات الطبيعية.

في تلك الأيام، كان خوفي من البشر/الحيوانات مماثلًا لخوفي الشخصي من مورو. انتابتني حالة اعتلالٍ مرضية عميقة ودائمة، بعيدًا عن الخوف الذي ترك ندوبًا دائمة في عقلي. يجب أن أعترف أنني فقدتُ الثقة في عقلانية العالم، عندما رأيتُ ذلك الاضطراب المؤلم على هذه الجزيرة. بدا الأمر وكأنَّ قدرًا أعمى، وآلية هائلة بلا شفقة، تقطع نسيج الوجود لتشكله؛ أما أنا، ومورو (بشغفه بالبحوث)، ومونتجمري (بشغفه بالخمر)، والبشر/الحيوانات بغرائزهم وقيودهم العقلية- ممزقون ومسحوقون بلا رحمة، لا محالة، وسط تعقيدٍ لا نهائي من دوران عجلات تلك الآلية المستمرة. على أنَّ هذه الحالة لم تظهر فجأة: أعتقد بالفعل أنَّني توقعتها قليلًا عند حديثي عنها الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(17)

الكارثة

لم يمرّ أكثرُ من ستة أسابيع قبل أفقد كلَّ شعورٍ، إلا الكراهية والاشمئزاز، تجاه تجربة مورو الشائنة. كانت الفكرة الوحيدة التي تبادرتْ إلى ذهني هي الابتعاد عن تلك الكائنات المروعة التي تحاكي البشر على نحوٍ كاريكاتوري، والعودة إلى التواصُل اللطيف والمفيد مع البشر. بدأ رفاقي البشر، الذين انفصلتُ برحلتي عنهم، يتخذون في ذاكرتي صورة شاعرية من الفضيلة والجمال. لم تزِد صداقتي الأولى مع مونتجمري؛ إذ أدَّى انفصالُه الطويل عن الإنسانية، وشغفه السري بالخمر، وتعاطفه الواضح مع البشر/الحيوانات، إلى تشويه صورته أمامي. تركته في مراتٍ عديدة يذهب إليهم بمفرده، حيث كنت أتجنَّب التواصُل معهم بكلِّ طريقة ممكِنة. كنتُ أمضي فتراتٍ متزايدة من وقتي على الشاطئ، انتظارًا لمرور أيِّ مركبٍ شراعيٍّ يمكن أن يحرِّرني، ولم يأتِ أبدًا؛ إلى أن وقعت كارثة مروعة، أضافت جانبًا مختلفًا تمامًا إلى البيئة الغريبة المحيطة بي.

وقعتْ تلك الكارثة بعد وصولي بقرابة سبعة أو ثمانية أسابيع، بل أكثر، على ما أعتقد، لأنَّني لم أكلِّف نفسي عناء حساب الوقت. حدث ذلك في الصباح الباكر، أعتقد في نحو الساعة السادسة. كنتُ قد استيقظتُ وتناولتُ إفطاري مبكرًا، بعد أن أيقظتني ضوضاء ثلاثة من البشر/الحيوانات يحملون بعض الأخشاب ويدخلونها إلى الحظيرة.

ذهبتُ بعد الإفطار إلى باب الحظيرة المفتوح، ووقفتُ أدخن سيجارة وأستمتع بنضارة الصباح الباكر. جاء مورو من جانب الحظيرة وحيّاني. مرَّ بجانبي، وسمعته خلفي يفتح قفل مختبره ويدخله. كنتُ حينذاك قد وصلتُ إلى حالة من تصلُّب المشاعر تجاه شناعة المكان، لدرجة أنَّني سمعتُ البوما الضحية تبدأ يومًا آخر من التعذيب، دون أن أشعر بأي لمسة من العاطفة. قابلتْ مُعذِّبها بصرخة، تماثل تقريبًا صرخة امرأة مشاكسة غاضبة.

وفجأة حدث شيءٌ ما، شيءٌ لا أعرفه حتى يومنا هذا. سمعتُ صرخة قصيرة وحادَّة خلفي، وصوت شيء يسقط. وعندما استدرتُ، رأيتُ وجهًا مروعًا يندفع نحوي، ليس إنسانًا، وليس حيوانًا، وإنما كان وجهًا شيطانيًّا بني اللون، يمتلئ بندوبٍ حمراء متفرعة تخرج منها قطرات حمراء، وعينيه متقدتين بلا جفونٍ. رفعتُ ذراعي لأحمي نفسي من الضربة التي قذفتني إلى الأمام وكسرتْ ساعدي. قفزَ من فوقي الوحش الضخم، المكسو بضمادات ملطَّخة باللون الأحمر، ثم مضى. تدحرجتُ مرارًا وتكرارًا على الشاطئ، وحاولتُ الجلوس، لكنَّني سقطتُ على ذراعي المكسور. ثم ظهر مورو، ووجهه الأبيض الضخم أكثر فظاعة من الدم الذي يتدفَّق من جبهته. كان يحمل مسدسًا في إحدى يديه. بالكاد ما نظر نحوي، لكنه هرع على الفور لمطاردة البوما.

استندتُ على ذراعي الآخر وجلستُ. ركضتْ الأنثى مضمدة الجسم في قفزاتٍ كبيرة على طول الشاطئ، وتبِعها مورو. أدارتْ رأسها ورأته، فضاعفتْ من سرعتها نحو غابة الشجيرات. وكانت تبتعد عنه أكثر مع كلِّ خطوة. رأيتُها تغوص بين الشجيرات، ومورو يركض في اتجاهٍ مائلٍ لاعتراضها، وأطلق عليها النَّار لكنَّه لم يصبها، واختفتْ. ثم اختفى هو أيضًا بين الشجيرات المتشابكة. أخذتُ أنظر نحوهما، ثم اشتدَّ الألم في ذراعي. ترنَّحتُ متأوِّهًا حتى تمكَّنتُ من الوقوف على قدمي. ظهر مونتجمري في المدخل، مرتديًا ملابسه، ومسدسه في يده.

قال، دون أن يلاحظ إصابة ذراعي: «يا إلهي!، بريند يك! لقد فرَّتْ المتوحشة! اقتلعتْ القيد من الحائط! هل رأيتهما؟». ثم سألني بحدة، عندما رآني أمسك بذراعي «ماذا بك؟».

قلتُ: كنت واقفًا في المدخل.

تقدم نحوي، وأمسك بذراعي، قائلًا: «توجد دماءٌ على الأكمام»، ثم شمّر كمَّ القميص. وضع سلاحه في جيبه، وتحسَّس ذراعي بشكلٍ مؤلمٍ، ثم قادني إلى الداخل. قال: «ذراعُكَ مكسورٌ. أخبرني كيف حدث ذلك بالضبط، ماذا حدث؟».

حكيتُ له ما رأيته، في جملٍ مكسورة، يقطعها لهاثٌ وألمٌ. وفي أثناء ذلك، قام مونتجمري ببراعة شديدة وبسرعةٍ بربط ذراعي، وعلقها برباطٍ على كتفي، ثم وقف ينظر نحوي.

قال: «سوف تتحسَّن، والآن؟».

أخذ يفكر، ثم خرج وأغلق أبواب الحظيرة. غاب لفترة.

كنتُ قلقًا، في الأساس، على ذراعي. بدا الحادث مجرد أحد الأشياء العديدة الرهيبة التي تحدث هنا. جلستُ على الكرسي القابل للطي، ويجب أن أعترف أنَّني لعنت الجزيرة من كلِّ قلبي. وعندما عاد مونتجمري، كان أول شعوري بألم الإصابة في ذراعي قد تلاشى وحلَّ محلَّه ألمٌ رهيبٌ. كان وجهه شاحبًا إلى حد ما، وظهرت لثته السفلية أكثر من أي وقت مضى.

قال: «لم أتمكَّن من رؤيته أو سماع أي شيء عنه. تصورتُ أنَّه ربما يحتاج إلى مساعدتي». كان يحدِّق إليَّ بعينين خاليتين من التعبير، ثم قال «لقد كانت وحشًا قويًّا. انتزعتْ قيودَها ببساطة من الحائط». ذهب إلى النافذة، ثم إلى الباب، وهناك استدار نحوي قائلًا: «سألاحقها. يوجد مسدسٌ آخر يمكنني تركه معك. أقول لك الحقيقة، لديَّ شعورٌ ما بالقلق».

أمسك بالسلاح، ووضعه أمامي على الطاولة ثم خرج، تاركًا شعورًا بالقلق. لم أجلس بعد فترة طويلة من مغادرته، بل أمسكتُ بالمسدس وذهبتُ إلى المدخل.

كان الصباح ساكنًا كالموت. ما من رياح تهمس. والبحر مثل الزجاج المصقول، والسماء خالية، والشاطئ مقفر. وفي حالتي نصف المتحمسة ونصف المحمومة، أصابني هذا السكون بالغمِّ. حاولتُ الصفير، لكنَّ اللحنَ تلاشى. لعنتُ الجزيرة مرَّة أخرى، إنَّها المرَّة الثانية في ذلك الصباح. ذهبتُ إلى زاوية الحظيرة، وحدَّقت بالأجمة الخضراء التي ابتلعتْ مورو ومونتجمري. متى سيعودان وكيف؟ ثم ظهر على الشاطئ عن بُعدٍ رجلٌ/حيوانٌ صغيرٌ ورماديٌّ، ركض إلى حافة الماء وبدأ يرشُّ الماءَ حوله. عُدتُ إلى المدخل، ثم إلى الزاوية مرَّة أخرى؛ وهكذا أخذتُ أسير جيئة وذهابًا مثل حارسٍ أثناء فترة الخدمة. انتبهتُ لصوت مونتجمري يصيح من بعيد «كوو-يي-مورو». أصبحتْ ذراعي أقلَّ إيلامًا، لكنَّها ساخنة جدًّا. أُصِبتُ بالحمَّى وشعرتُ بالعطش، أصبح ظلِّي أقصر. شاهدت مونتجمري عن بُعدٍ إلى أن اختفى ثانية. هل سيعود مورو ومونتجمري؟ بدأت ثلاثة طيور بحرية معركة على بعض الكنوز التي دفعتها الأمواج إلى الشاطئ.

سمعتُ صوتَ طلقات مسدسٍ من بعيدٍ، وراء الحظيرة، ثم صمت طويل، ثم طلقات أخرى. سمعت بعد ذلك صرخة قريبة، ثم فجوة صمت كئيبة. بدأ خيالي البائس يعذبني. وفجأة سمعتُ طلقة قريبة جدًّا. ذهبتُ إلى الزاوية، وأصابني ذهول؛ حيث رأيتُ مونتجمري، وجهه قرمزيٌّ، وشعره مبعثر، ورُكبة سرواله ممزَّقة. حملتْ تعبيرات وجهه ذعرًا عميقًا. أتى مترهلًا خلفه الرجل/الوحش ملينج، وكانت توجد حول فكيه بعض البقع الداكنة الغريبة.

«هل جاء؟»، سألني مونتجمري.

«مورو؟»، أجبته، «كلا».

«يا إلهي!»، كان الرجل يلهث، ينتحب تقريبًا. قال وهو يمسك بذراعي: «عُد إلى الداخل. لقد جُنَّ جنونهم. يركضون في جميع الأنحاء بجنونٍ. ماذا حدث؟ لا أعرف. سأخبرك عندما التقط أنفاسي. أين البراندي؟»

سار مونتجمري أمامي إلى الغرفة وهو يعرج، وجلس على الكرسي القابل للطي. ألقى ملينج نفسه خارج المدخل، وبدأ يلهث مثل الكلب. أحضرت لمونتجمري بعض البراندي والمياه. جلس يحدِّق إلى لا شيء، ليستعيد أنفاسه. وبعد بضع دقائق، بدأ يخبرني بما حدث.

تمكَّن من اتِّباع مسارهم بطريقة ما. كان الأمرُ واضحًا بما يكفي في البداية بسبب الشجيرات المسحوقة والمكسورة، والخرق البيضاء الممزقة من ضمادات البوما، فضلًا عن لطخات الدم بين الحين والآخر على أوراق الشجيرات والنباتات. لكنَّه فَقَدَ المسار على الأرض الحجرية وراء الجدول المائي –المكان الذي رأيتُ فيه الرجل/الوحش يشرب– ثم واصل تجوُّله نحو الغرب بلا هدفٍ وهو يصيح باسم مورو. لحِق به ملينج، حاملًا بلطة خفيفة. لم يكن قد شهد أيَّ شيءٍ مما حدث مع البوما؛ حيث كان يقطع الأخشاب، ثم سمع النداء. استمر الاثنان في النداء معًا. جاء رجلان/حيوانان جاثمين، ويحدقان إليهما خلال النباتات، بإيماءاتٍ غريبة وبسلوكياتٍ ماكرة أزعجت مونتجمري. قام بتحيتهما، ففرَّا على نحوٍ يوحي بشعورهما بالذنب. توقَّف عن النداء، وبعد أن تجوَّل بعض الوقت على غير هدى، قرر زيارة الأكواخ.

وجد الوادي مهجورًا.

كان انزعاجه يزداد كل دقيقة، ولذا بدأ يعود أدراجه. قابل بعد ذلك الرجلين/الخنزيرين اللذين رأيتهما يرقصان في ليلة وصولي، لكن الدماء كانت تلطِّخ أفواههما، كما كانا في شدة الانفعال. كانت النباتات تتهشَّم تحت وقع أقدامهما خلال سيرهما عبر أشجار السرخس، وتوقَّفا مع تعبيراتٍ شرسة على وجهيهما عندما شاهداه. ضرب بسوطه في الهواء بريبة، فاندفعا على الفور لمهاجمته. لم يسبق لرجل/وحش أن تجرَّأ على ذلك. أطلق مونتجمري النار على رأس أحدهما، بينما قذف ملينج نفسه على الآخر، وبدأ الاثنان يتصارعان وهما يتدحرجان. تمكَّن ملينج من إخضاع الوحش وغرز أسنانه في رقبته، فأطلق مونتجمري النار عليه أيضًا لأنَّه كان يصارع للتخلُّص من قبضة ملينج. واجه مونتجمري صعوبة في حثِّ ملينج على المجيء معه. ثم سارعا بالعودة إلي. وفي الطريق، اندفع ملينج فجأة إلى الغابة لمطاردة الرجل/النمر القزم، الذي كان ملطَّخًا بالدماء أيضًا، ويعرج نتيجة لجرحٍ في قدمه. ركض هذا الوحش قليلًا، ثم استدار بوحشية بعد أن أصبح محاصرًا، وأعتقد أنَّ مونتجمري أطلق عليه النار بفظاظة.

تساءلت: «ماذا يعني ذلك كله؟».

هزَّ مونتجمري رأسَه، وتحوَّل إلى البراندي مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(18)

العثور على مورو

قررتُ أن أتدخَّل، عندما رأيتُ مونتجمري يبتلع جرعة ثالثة من البراندي. كان أكثر من نصفِ مشوَّشٍ بالفعل. قلتُ له إنَّ شيئًا خطيرًا لا بُدَّ قد حدث لمورو بحلول هذا الوقت، وإلَّا لكان عاد بالفعل، وعلينا أن نتحقَّق من تلك الكارثة. أثار مونتجمري بعض الاعتراضات الضعيفة، لكنَّه وافق في النهاية. تناولنا الطعام، ثم بدأنا نتحرك نحن الثلاثة.

كانت هذه البداية، في وسط سكون بعد الظهيرة الاستوائي الساخن الآن، تمنح شعورًا حيويًّا متفردًا؛ وربما يرجع ذلك إلى توتُّر ذهني حينذاك. بدأ ملينج أولًا، بكتفه المنحني، ورأسه الأسود الغريب يتحرك بسرعة مع انتقال بصره من أحد جانبي الطريق إلى الجانب الآخر. لم يكن مسلحًا؛ فقد سقطتْ بلطته خلال اشتباكه مع الرجل/الخنزير. كانت أسنانه هي أسلحته، عندما يتعلَّق الأمر بالقتال. تبِعه مونتجمري بخُطى متعثِّرة ويداه في جيوبه، ووجهه مكتئبٌ؛ فقد كان في حالة التجهُّم المشوَّش تجاهي بسبب البراندي. كان ذراعي الأيسر في حمَّالة كتفٍ (من حُسن حظي أنَّه الذراع الأيسر)، وحملتُ مسدسي بيدي اليمنى. سرعان ما تتبعنا مسارًا ضيقًا بين النباتات البرية الوافرة على الجزيرة، في اتجاه الشمال الغربي؛ ثم توقف ملينج، وتسمَّر بحرصٍ. كاد مونتجمري أن يصطدم به، ثم توقَّف أيضًا. أنصتنا بعناية، وسمعنا صوت خطوات قادمة من بين الأشجار تقترب منَّا.

قال صوتٌ عميقٌ مهتزٌ: «لقد مات».

ثرثر آخر: «لم يمت؛ لم يمت».

قالت عدة أصوات: «رأينا، رأينا».

صاح مونتجمري فجأة: «هالو!، هالو! يا من أنتم هناك!».

قلتُ: «تبًا!» وقبضتُ على مسدسي.

ساد صمتٌ، ثم سمِعنا أصواتَ تهشُّم بين النباتات المتشابكة؛ هنا أولًا، ثم هناك، وبعدها ظهرت نصف دزينة من الوجوه، وجوه غريبة، مضاءة بضوءٍ غريبٍ. أصدر ملينج هديرًا من حلقه. تعرَّفتُ على الرجل/القرد: تعرَّفتُ عليه من صوته، كما تعرَّفتُ على اثنين من المخلوقات بملامح بُنيَّة ومضمدين بالأربطة البيضاء؛ اللذين رأيتهما في قارب مونتجمري. كان معهما الوحشان المرقطان؛ وذلك الكائن الرمادي الفظيع المنحني، القائل بالقانون، بشعره الرمادي يتدفق أسفل خديه، وحاجبيه الرماديين الكثيفين، وخصل الشعر الرمادية تتدفق من فارق في منتصف شعره على جبهته المنحدرة، إنَّه شيءٌ ثقيلٌ، مجهول الوجه، مع عينين حمراوين غريبتين، وينظر إلينا بفضولٍ من وسط الأشجار الخضراء.

ساد الصمت لفترة، ثم سأل مونتجمري، وهو مصابٌ بالفواق: «من... قال إنَّه مات؟».

نظر الرجل/القرد على نحوٍ يوحي بالذنب إلى الكائن رمادي الشعر. قال ذلك الوحش: «لقد مات. شاهدوه».

لم تكن هذه المجموعة تثير التهديد، بأي حال. فقد بدا عليهم الذهول والحيرة.

«أين هو؟»، سأل مونتجمري.

أجاب الكائن الرمادي: «هناك، في الخلف»، وأشار بيده.

سأل الرجل/القرد: «هل يوجد قانونٌ الآن؟ هل لا يزال هذا وذاك؟ هل مات بالفعل؟».

كرَّر الرجل المضمد بأربطة بيضاء: «هل هناك قانونٌ؟ هل يوجد قانونٌ، أنتَ يا مَن تحمل السوط؟».

قال الكائن رمادي الشعر: «لقد مات». ووقفوا جميعا يرقبوننا.

«بريينديك»، قال مونتجمري، وهو يدير عينيه الباهتتين نحوي، «واضحٌ أنَّه مات».

كنت أقف خلف مونتجمري أثناء هذا الحديث، وبدأتُ أرى كيف يسيطرون على الأمور. خطوتُ فجأة أمام مونتجمري، وقلتُ بصوتٍ عالٍ: «يا أبناء القانون، إنَّه لم يمت!». أدار ملينج عينيه الحادَّتين نحوي. واصلتُ كلامي: «لقد غيَّر شكله، غيَّر جسده. لن تروه لفترة من الوقت. إنَّه...هناك»، وأشرتُ إلى أعلى، «حيث يمكنه مشاهدتكم. لا يمكنكم رؤيته، لكنَّه يستطيع رؤيتكم. عليكم مراعاة القانون!».

نظرتُ نحوهم بشكلٍ مباشرٍ، فأصابهم الذهول.

قال الرجل/القرد، وهو ينظر بخوفٍ إلى أعلى بين الأشجار الكثيفة» «إنَّه عظيمٌ، إنَّه جيِّدٌ».

سألتُ: «وماذا عن الشيء الآخر؟».

قال الكائن الرمادي، وهو لا يزال ينظر نحوي: «الشيء الذي نزف، وركض يصرخ وينتحب... مات هو الآخر».

قال مونتجمري: «هذا جيِّدٌ».

بدأ الكائن الرمادي: «والآخر الذي معه السوط...».

«حسنا؟»، سألته.

«قال إنَّه مات».

كان مونتجمري لا يزال منتبهًا بما يكفي لفهم دافعي لإنكار موت مورو؛ فقال ببطءٍ: «إنَّه لم يمتْ. لم يمتْ على الإطلاق. إنَّه مثلي تمامًا».

قلتُ: «لقد خرق البعض القانون: سوف يموتون. بعضهم مات. عليكم أن تدلونا الآن عن مكان جسده القديم،... أي الجسد الذي ألقاه بعيدًا لأنَّه لم يعُد بحاجة إليه».

قال الكائن الرمادي: «هذا هو الطريق، يا أيُّها الرجل الذي مشى في البحر».

سرنا مع هذه المخلوقات الستة التي توجِهنا، خضنا تشابك أشجار السرخس والنباتات المتسلقة وسيقان الأشجار نحو الشمال الغربي. ثم سمعنا صوت صُراخٍ، وتحطُّم بين فروع الأشجار، واندفع قزمٌ ورديٌّ صغيرُ الحجم أمامنا صارخًا. ظهر بعده مباشره وحشٌ يطارده بتهورٍ، وملطَّخ بالدماء، ومرَّ بيننا تقريبًا قبل أن يتمكَّن من التوقُّف. قفز الكائن الرمادي جانبًا. اندفع ملينج نحو الوحش مزمجرًا لكنَّ الوحش دفعه جانبًا. أطلق عليه مونتجمري النار ولم يصبه؛ حنى رأسه، ورفع ذراعه، واستدار راكضًا. أطلقتُ النار ولم أصبه. أطلقتُ النار ثانية، من كثبٍ، نحو وجهه القبيح. رأيتُ ملامحه تتلاشى في لمح البصر: تشوَّه وجهه مندفعًا إلى الداخل. ومع ذلك، تجاوزني وأمسك بمونتجمري، وسقط بجانبه، وسحبه لينبطح أرضًا، وهو يعاني سكرات الموت.

وجدتُ نفسي وحيدًا مع ملينج، والوحش الميت، والرجل المنبطح أرضًا. قام مونتجمري

ببطءٍ، وحدَّق بطريقة مشوشة بالرجل/الوحش المُحطَّم بجانبه. أفاقه الموقف من حالة السُكر، ووقف على قدميه. ثم رأيت الكائن الرمادي يعود بحذرٍ من بين الأشجار.

قلتُ، مُشيرًا إلى الوحش الميت: «انظروا، أليس القانون قائمًا؟ هذه عقوبة من يخرق القانون».

حدَّق الكائن الرمادي بالجثة، وأخذ يكرِّر جزءًا من الطقوس بصوتٍ عميق: «إنه يرسل النار التي تقتل». تجمَّع الآخرون حوله، وظلُّوا يحدِّقون بالفضاء.

اقتربنا أخيرًا من أقصى الجزيرة غربًا. وجدنا جثة البوما المشوهة والممزقة، وعظم كتفها محطم برصاصة. وبعد قرابة عشرين ياردة، وجدنا أخيرًا ما نبحث عنه. كان مورو ممدَّدًا على الأرض ووجهه إلى أسفل، في مساحة من أعواد القصب المتكسرة. كانت إحدى يديه شبه مقطوعة عند المعصم، وكان شعره الفضي ملطَّخًا بالدماء. تعرَّض رأسه للإصابة تحت ضربات أغلال البوما. كما كانت عيدان القصب المكسورة تحته ملطخة بالدماء. لم نعثر على مسدسه. أدار مونتجمري جسد مورو. حملنا مورو وعُدنا به ثانية إلى الحظيرة؛ كنَّا نستريح على فترات، وبمساعدة سبعة من البشر الحيوانات (لأنَّه كان ثقيل الوزن). كان الليل حالك الظلام. سمعنا مرتين عواء وصراخ مخلوقات غير مرئية حولنا، كما ظهر حيوان الكسلان وردي اللون وأخذ يحدق إلينا، ثم اختفى. لكننا لم نتعرَّض لأيٍّ هجومٍ طوال الطريق. تركتنا مجموعة البشر/الحيوانات عند بوابات الحظيرة، وذهب معهم ملينج. أغلقنا علينا الباب، ووضعنا جسم مورو المشوَّه في الفناء على كومة من الحطب. ثم ذهبنا إلى المختبر، ووضعنا نهاية لكلٍّ ما وجدناه يعيش هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(19)

«احتفال» مونتجمري

بعد أن انتهينا واغتسلنا وأكلنا، اصطحبتُ مونتجمري إلى غرفتي الصغيرة، وناقشنا الموقف بجديَّة للمرَّة الأولى. اقتربَ منتصف الليل، ولا يزال مونتجمري يقظًا إلى حدٍّ كبيرٍ، لكنَّه مضطربُ الذهن للغاية. كان يقع إلى حدٍّ غريبٍ تحت تأثير شخصية مورو: لا أعتقد أنَّه خطر على باله أنَّ مورو يمكن أن يموت. كانت هذه الكارثة بمثابة الانهيار المفاجئ للعادات التي أصبحت جزءًا من طبيعته في السنوات العشر أو أكثر الرتيبة التي قضاها على الجزيرة. تحدَّث بشكلٍ غامضٍ، وأجاب على أسئلتي بشكلٍ ملتوٍ، وكان ذهنه شاردًا في تساؤلاتٍ عامة.

قال: «يا له من عالَمٍ سخيفٍ، ويا لتشوش كل شيء! لم تكن لي حياة. أتساءل متى تبدأ. أمضيتُ ستة عشر عامًا مُعرَّضًا لمضايقات عمدية من المربيات ومديري المدارس؛ خمس سنوات في لندن مطحون في دراسة الطب، طعام سيئ، سكن رث، ملابس رثة، رذيلة سيئة، تخبُّط، لم أعرف شيئًا أفضل، ثم هذه الجزيرة البغيضة. عشر سنوات هنا! لماذا، يا برينديك؟ هل نحن فقاعاتٌ ينفخها طفلٌ؟».

كان من الصعب التعامُل مع مثل هذا الهذيان. قلتُ: «يجب أن نفكر الآن في كيفية الفرار من هذه الجزيرة».

«وما فائدة الفرار؟ أنا منبوذٌ. إلى أين أذهب؟ أما أنتَ فوضعكَ جيِّدٌ، يا برينديك. مورو، العجوز المسكين! لا يمكننا تركه هنا، سيأكلونه. علاوة على ذلك، ماذا سيحدث للمجموعة الجيِّدة من البشر/الحيوانات؟».

أجبته: «حسنًا، سنتولَّى الأمر غدًا. كنت أفكر في جمع بعض الأغصان المتكسرة واستخدامها في إعداد محرقة، ثم إحراق جسده وأجساد تلك الكائنات الأخرى. وبعد ذلك؛ ماذا سيحدث للبشر/الحيوانات؟».

«لا أعرف، أعتقد أنَّ الكائنات التي كان أصلها حيواناتٍ مفترسة سوف تُجن عاجلًا أم آجلًا. لا يمكننا ذبحهم جميعًا، هل يمكننا؟ أعتقد أنَّ هذا ما تطرحه إنسانيتك؟ لكنَّهم سيتغيَّرون. من المؤكد أنَّهم سيتغيَّرون».

ظلَّ يتحدَّث بهذه الطريقة المتردِّدة دون حسمٍ، إلى أن بدأت أشعر أنَّني أفقد أعصابي.

ثم صاح بفظاظة: «اللعنة! ألا يمكنكَ أن ترى أنَّني في مأزقٍ أسوأ منكَ؟ قام، وذهب ليحتسي البراندي. وعندما عاد، قال: «اشرب! أيها المجادِل المراوِغ، أيُّها المُلحِد الذي يملك وجه قديس شاحبًا، اشرب!».

«كلا، لن أشرب». جلست متجهِّمًا أراقب وجهه تحت وهج البارافين الأصفر، وهو يشرب ويثرثر في بؤسٍ.

أتذكر شعوري بمللٍ لا نهائي في ذلك اليوم. فقد ظلَّ يدافع بعاطفة جياشة عن البشر/الحيوانات وعن ملينج. قال إنَّه لم يحظَ هنا بأيِّ اهتمامٍ سوى من ملينج. وفجأة خطرتْ على باله فكرة.

قال: «أنا ملعونٌ!» وسار مترنحًا، وهو قابضٌ على زجاجة البراندي.

أدركتُ بومضة من الحدس ما ينوي أن يفعله. وقفتُ وواجهته: «لا تعطِ شرابًا إلى هذا الوحش!».

أجاب: «الوحش! أنتَ الوحش. إنَّه يتناول الخمر كمسيحي. ابتعد عن طريقي يا بريينديك!».

قلت: «بالله عليكَ».

قال هادرًا: «ابتعد عن طريقي!». وفجأة، أخرج مسدسه.

«حسنًا»، قلت وأنا ابتعد وأقف جانبًا، وفكرتُ في الهجوم عليه وهو يضع يده على مزلاج الباب، لكنني تراجعتُ عندما تذكرتُ ذراعي المصاب. وقلتُ له: «لقد صنعتَ من نفسِك وحشًا، اذهب إليهم، إلى الوحوش».

دفع الباب بقوة، ووقف عنده ونصفه يواجهني بين ضوء المصباح الأصفر ووهج القمر الباهت. كان تجويف عينيه عبارة عن بقعٍ سوداء تحت حاجبيه الكثيفين.

«إنَّك منافقٌ نمطيٌّ، يا بريينديك، أحمقُ سخيفٌ! أنتَ دائمًا تخاف وتتوهَّم. نحن في مأزقٍ. سوف انتحر غدًا، ولذا سأنعم باحتفالٍ الليلة. استدار وخرج إلى ضوء القمر. نادى: «ملينج، يا ملينج، يا صديقي العزيز!».

جاءت ثلاثة مخلوقات قاتمة، تحت الضوء الفضي، تسير على حافة الشاطئ الشاحب، كان أحدهم كائنًا تلتفُّ حوله ضمادات بيضاء، وتبعه الاثنان الآخران كبقعتين من السواد. توقفوا يحدِّقون؛ ثم رأيتُ كتف ملينج الأحدب وهو قادم من زاوية المنزل.

«اشربوا!»، صاح مونتجمري، «اشربوا، أيُّها الوحوش! اشربوا وكونوا رجالًا! اللعنة، أنا الأذكى. نسي مورو ذلك؛ هذه هي اللمسة الأخيرة. اشربوا، أقول لكم اشربوا!». وبدأ، وهو يلوِّح بالزجاجة في يده، يهروِل بسرعة في اتجاه الغرب، وملينج يتحرك بينه وبين المخلوقات الثلاثة القاتمة التي تبعته.

ذهبتُ إلى المدخل. كان يصعب تمييزهم بالفعل في ضباب ضوء القمر، قبل أن يتوقف مونتجمري. رأيته يعطي جرعة من البراندي إلى ملينج، ثم شاهدت الأشكال الخمسة تذوب في رقعة واحدة مبهمة.

سمعت مونتجمري يصيح: «غنوا، هيا، غنوا جميعًا «اللعنة على بريينديك العجوز!» هذا صحيح،! والآن مرة أخرى «اللعنة على بريينديك العجوز!»».

انقسمتْ المجموعة السوداء إلى خمس شخصيات منفصلة، وابتعدتْ عنِّي ببطءٍ على شريط الشاطئ اللامع. ذهب كلٌّ منهم يعوي بطريقته، أو يقذفني بالشتائم، أو يُنفِّس عن أي شيء آخر أوحى به البراندي. ثم سمعتُ صوت مونتجمري يصرخ: «إلى اليمين»؛ وعندئذٍ ساروا بصيحاتهم وعويلهم وسط سواد الأشجار. وببطءٍ، ببطءٍ شديد، خيَّم الصمت.

عادت روعة سكون الليل ثانية. وتجاوز القمر الآن خط الزوال، وبدأ رحلته في اتجاه الغرب. كان بدرًا ساطعًا، يتحرك عبر السماء الزرقاء الخالية. امتدَّ ظلُّ الجدار لمسافة ياردة، وبسوادٍ حالكٍ عند قدمي. وكان البحر في اتجاه الشرق رماديًا بلا ملامح، مظلمًا وغامضًا؛ وبين البحر والظل ومضتْ الرمال الرمادية (من الزجاج البركاني والبلورات) ولمعتْ مثل شاطئ من الماس. وتوهَّج خلفي مصباح البارافين ساخنًا بلونٍ ضاربٍ إلى الحُمرة.

أغلقتُ الباب بالمفتاح وذهبتُ إلى الحظيرة، حيث يرقد مورو بجانب آخر ضحاياه -كلاب

الصيد، واللاما، وغيرها من الحيوانات البائسة- ووجهه الضخم هادئ حتى بعد وفاته الرهيبة، وعيناه الثابتان مفتوحتين تحدِّقان بالقمر الأبيض الميت أعلاه. جلستُ على حافة الحوض، وعيني على تلك الكومة المروعة من الضوء الفضي، وبدأتُ عبر تلك الظلال المشؤومة أفكِّر في خططي. سوف أجمع بعض المؤن في الصباح، وأضعها في زورق التجديف؛ وبعد إشعال النار في المحرقة أمامي، انطلق ثانية نحو عزلة أعالي البحر. شعرتُ أنَّني لا أستطيع مساعدة مونتجمري؛ فهو في الحقيقة أقرب إلى هؤلاء البشر/الحيوانات، ولم يعُد قادرًا على العيش بين البشر.

لا أعرف المدة التي أمضيتها جالسًا هناك أخطط. لا بُدَّ أنَّها كانت ساعة أو نحو ذلك، وبعدها قطعتْ عودة مونتجمري سلسلة تفكيري في الخطط. سمعتُ صراخًا من أفواهٍ عديدة، وضجيجَ صيحاتٍ متهللة تمرُّ في اتجاه الشاطئ، وصياحًا وعواءً، وصراخًا متحمسًا بدا وكأنَّه يتوقف بالقرب من حافة الماء. ارتفعتْ الأصوات ثم انخفضتْ؛ وسمعتُ صوت ضربات قوية، وتناثر تحطيم الأخشاب، لكنه لم يقلقني حينذاك. ثم بدأ إنشادٌ متنافرٌ.

عُدت بأفكاري إلى وسيلة هروبي. نهضتُ، وأحضرتُ المصباح، وذهبتُ إلى سقيفة لإلقاء نظرة على بعض البراميل التي رأيتها هناك. تحوَّل اهتمامي إلى محتويات بعض علب البسكويت، وفتحتُ واحدة. رأيتُ شيئًا بطرف عيني –هيكلًا أحمر– فاستدرت بسرعة.

كان الفناء ورائي، يبدو واضحًا باللونين الأبيض والأسود في ضوء القمر؛ وكذلك كومة الأخشاب والعصي التي يرقد فوقها مورو وضحاياه المشوهون، واحدًا فوق الآخر. بدوا ممسكين ببعضهم بعضًا في معركة انتقامية أخيرة. كانت جروحه غائرة، سوداء كالليل، والدماء التي تساقطت شكَّلتْ بقعًا سوداء على الرمال. ثم رأيتُ، دون أن أفهم، سبب أوهامي، رأيتُ توهجًا ضاربًا إلى الحُمرة يأتي ويرقص، ثم ينتقل إلى الحائط المقابل. لقد أسأتُ تفسيره، وتخيَّلتُ أنَّه انعكاسٌ لمصباحي الوامض، ثم استدرتُ ثانية، ونظرتُ نحو المؤن الموجودة في السقيفة. أخذتُ أفتِّش فيهم بقدر ما يمكن لرجلٍ بذراعٍ واحدٍ، ووجدتُ بعضَ الأشياء المناسبة، ووضعتها جانبًا لرحلة الغد. كانت حركتي بطيئة، ومرَّ الوقتُ بسرعة، وتسلَّل ضوء النهار.

تلاشى الغناء مفسحًا المجال للصخب؛ ثم بدأ الغناء ثانية، وفجأة تحوَّل إلى اضطرابٍ. سمعتُ صيحاتٍ «المزيد! المزيد!»، وصوتَ مشاجرة، ثم صرخة جامحة مفاجئة. تغيَّرت نوعية الأصوات إلى حدٍّ كبيرٍ بحيث استحوذتْ على انتباهي. خرجتُ إلى الفناء لأنصت السمع. انطلق صوتُ مسدسٍ مثل سكينٍ قطع الارتباك.

أسرعتُ على الفور، خلال غرفتي، إلى المدخل الصغير. وعندئذٍ سمعتُ بعضَ صناديق التعبئة تنزلق ورائي متحطمة، بالإضافة إلى قعقعة الزجاج المتساقط على أرضية السقيفة. لم اهتم، ودفعتُ الباب ونظرتُ إلى الخارج.

اشتعلتْ النيران بالقرب من سقيفة القارب على الشاطئ، وألقتْ بالشرارات خلال غموض الفجر؛ وحولها تتعارك كتلة من الهياكل السوداء. سمعتُ مونتجمري ينادي باسمي؛ فبدأتُ أركض في الحال نحو الحريق ومسدسي في يدي. رأيتُ ومضة واحدة وردية تنطلق من مسدس مونتجمري بالقرب من الأرض. لقد سقط. صرختُ بكلِّ قوتي، وأطلقتُ النار في الهواء. سمعتُ أحدهم يصيح: «السيد!». تفرَّق جمع المعارك المتشابكة في وحداتٍ متناثرة. انطفأتْ النيران، وهرب حشد البشر/الحيوانات في حالة من الذعر المفاجئ على الشاطئ أمامي. وفي ظلِّ هذه الإثارة، أطلقتُ النار على ظهورهم وهم يتراجعون ويختفون بين الشجيرات. ثم استدرتُ نحو الأكوام السوداء على الأرض.

كان مونتجمري يرقد على ظهره، والرجل/الوحش رمادي الشعر ممدد فوقه. كان ميتًا، لكنه

لا يزال قابضًا على عنق مونتجمري بمخالبه المنحنية. رقد ملينج على وجهه بلا حراكٍ بالقرب منه، ورقبته مفتوحة من جراء عضَّة، والجزء العلوي من زجاجة براندي محطَّمٌ في يده. رقد اثنان آخران بالقرب من النار؛ أحدهما بلا حراكٍ، والآخر يئن بشكلٍ متقطِّعٍ ويرفع رأسه ببطءٍ بين الحين والآخر ثم يخفضها ثانية.

أمسكتُ بالرجل الرمادي، وسحبته بعيدًا عن جسد مونتجمري؛ جذبتْ مخالبه قسرًا المعطف الممزَّق وأنا أجرُّه بعيدًا. كان وجه مونتجمري داكنًا وبالكاد يتنفس. رششتُ ماء البحر على وجهه، ووضعتُ رأسه على معطفي الذي لففته كوسادة. كان ملينج ميتًا. أما الكائن الجريح الذي يرقد بالقرب من النار، فقد كان الوحش/الذئب بوجهه الرمادي الملتح؛ والجزء الأعلى من جسده يستند إلى الأخشاب التي لا تزال متوهجة. لقد أُصيب هذا الكائن البائس بإصاباتٍ بالغة؛ لدرجة أنَّني -رحمة به- فجَّرتُ رأسه في الحال. وكان الوحش الآخر أحد الرجال/الثيران المضمدين بأربطة بيضاء، وميتًا هو الآخر. واختفى بقية البشر/الحيوانات من الشاطئ.

عُدتُ إلى مونتجمري وركعتُ بجانبه، وأنا ألعن جهلي بالطب. كان الحريق بجانبي قد انطفأ، ولم يتبق سوى عوارض خشبية متفحِّمة، تتوهَّج أطرافُها وتختلط برمادٍ رماديٍّ من الخشب. تساءلتُ عرضًا من أين حصل مونتجمري على الخشب. ثم رأيتُ بزوغ الفجر، والسماء أكثر إشراقا، والقمر أكثر شحوبًا وعتامة في ضوء النهار الأزرق الساطع، بينما تطلُّ حافة حمراء في السماء ناحية الشرق.

سمعت فجأة صوتًا مكتومًا وهسهسة خلفي. نظرتُ ورائي، ونهضتُ على قدمي صارخًا من الرعب. كانت كتلٌ هائلة من الدخان الأسود تتصاعد من الحظيرة، في هذا الفجر الدافئ، وتنطلق ألسنة اللهيب الحمراء بلون الدم خلال الظلام العاصف. ثم اشتعل السقف المصنوع من القش، ورأيتُ خيوط النار المنحنية عبر القش المنحدر. انطلقتْ موجة نيران من نافذة غرفتي.

عرفتُ على الفور ما حدث. تذكرتُ صوت الاصطدام الذي سمعته. عندما هرعتُ لمساعدة مونتجمري، انقلب المصباح بعد اصطدامي به.

حدَّق بوجهي اليأس من إنقاذ أيٍّ من محتويات الحظيرة. عادتْ إلى ذهني ثانية خطة الهروب؛ ونظرتُ بسرعة لأرى أين يقع القاربان على الشاطئ. اختفى القاربان! رأيتُ فأسين على الرمال بجانبي؛ وتناثرتْ الرقائق والشظايا في جميع الأنحاء، ورماد النار يتحوَّل إلى سوادٍ ودخانٍ تحت ضوء الفجر. لقد أحرق مونتجمري القاربين لينتقم مني، ويمنع عودتنا إلى الحياة البشرية!

هزَّني تشنُّج مفاجئ من الغضب. كدتُ أضرب رأسه الحمقاء وهو راقدٌ عاجزٌ عند قدمي. وفجأة تحرَّكت يده، بضعفٍ شديدٍ على نحوٍ يثير الشفقة، لدرجة أنَّ غضبي تلاشى. كان يئنُّ، ثم فتح عينيه لدقيقة. ركعتُ بجانبه ورفعتُ رأسه. فتح عينيه مرة أخرى وهو يحدق بصمت بالفجر، ثم التقتْ عينانا، وبعدها أنزل جفنيه.

قال بجهدٍ: «أنا آسفٌ». بدا أنه يحاول التفكير. غمغم قائلًا: «النهاية... نهاية هذا الكون السخيفة. يا لها من فوضى...».

استمعتُ، ثم سقط رأسه بلا حولٍ ولا قوة على الجانب. تصوَّرتُ أنَّ بعض الشراب قد ينعشه؛ ولكن لا يوجد شرابٌ ولا يتوفَّر وعاءٌ لجلب الشراب. بدا جسمه أثقل فجأة. شعرتُ بقلبي باردًا. انحنيتُ على وجهه، ووضعتُ يدي خلال فتحة في قميصه. لقد مات. وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، ارتفع خطٌّ من حرارة بيضاء، كأنَّه أحد أطراف الشمس، ارتفع

شرقًا وراء نتوء الخليج، ناشرًا أشعتها عبر السماء ومحولًا البحر المظلم إلى صخبٍ هائلٍ من الضوء الساطع. سقط متألقًا على وجهه الذي انكمش بالموت.

تركتُ رأسه يسقط بلطفٍ على الوسادة الخشنة التي صنعتها له، ووقفتُ. شاهدتُ أمامي عزلة البحر المتلألئة؛ العزلة الفظيعة التي عانيتُ منها كثيرًا. وشاهدتُ خلفي الجزيرة؛ صامتة تحت ضوء الفجر، ما من صوتٍ أو أثرٍ لرجالها/الحيوانات. احترقتْ الحظيرة، بكلِّ ما بها من مؤن وذخيرة، احترقتْ بصخبٍ، مع هبوبٍ مفاجئ من اللهب، وطقطقة متقطعة، وتحطم بين الحين والآخر. حجب الدخان الكثيف الشاطئ عني. انتشر الدخان منخفضًا فوق قمم الأشجار البعيدة نحو الأكواخ في الوادي الضيق. كانت بجانبي بقايا القوارب المتفحمة، وهذه الجثث الخمس.

خرج من بين الشجيرات ثلاثة من البشر/الحيوانات، بأكتافهم المحدبة، ورؤوسهم الناتئة، وأيديهم المشوَّهة المتدلية بغرابة، وأعينهم الفضولية غير الودودة، يتقدَّمون نحوي بإيماءاتٍ مترددة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(20)

وحدي مع البشر/الحيوانات

واجهتُ هؤلاء الأشخاص، وواجهتُ مصيري، بيدٍ واحدة؛ حرفيًّا بيدٍ واحدة، لأنَّني كسرت ذراعي. كان المسدس في جيبي بخزانتين فارغتين. يوجد فأسان بين الرقائق المتناثرة حول الشاطئ، استخدمها مونتجمري لتقطيع خشب القاربين. كان المدُّ يزحف خلفي، ولم أملك أيَّ شيءٍ سوى شجاعتي. نظرتُ مباشرة نحو وجوه الوحوش المتقدمين. تجنَّبوا عيني، وتشمَّمتْ أنوفهم المرتعشة الجثث التي ترقد خلفي على الشاطئ. مشيتُ ستَ خطواتٍ، وأمسكتُ السوط الملطَّخ بالدماء الذي يرقد تحت جثة الرجل/الذئب، ولوَّحتُ به في الهواء. توقفوا محدقين بوجهي.

قلت: «تقدَّموا بالتحية! واركعوا أمامي!».

تردَّدوا، ثم انحنى أحدُهم على ركبتيه. كررتُ أمري، مرتعبًا، وتقدَّمتُ نحوهم. ركع واحدٌ، وتبِعه الاثنان الآخران.

استدرتُ ومشيتُ نحو الجثث، محافظًا على إبقاء اتجاه وجهي نحو البشر/الحيوانات الثلاثة الراكعين؛ بما يشبه ممثِّلًا يمرُّ على خشبة المسرح وهو يواجه الجمهور.

قلتُ، وأنا أضع قدمي على جثة القائل بالقانون: «لقد خرقوا القانون. وقُتِلوا. حتى القائل بالقانون؛ وحتى ذلك الآخر مع السوط. يا لعظمة القانون! تعالوا وانظروا».

«لا أحد يهرب»، قال أحدُهم، وهو يتقدَّم وينظر.

قلتُ: «لا أحد يهرب، ولذلك اسمعوا ما أقوله، وافعلوا ما آمركم به». وقفوا ينظرون بعضهم لبعضٍ متسائلين.

قلتُ: «قفوا هناك».

حملتُ الفأسين، وعلَّقتهما من رأسيهما في حمَّالة ذراعي، ثم قلبتُ جثمان مونتجمري، وأخذتُ مسدسه الذي كانت خزانتا أعيرته النارية ممتلئتين، وانحنيتُ أفتِّش في ملابسه، فوجدتُ نصف دزينة من الخراطيش في جيبه.

وقفتُ ثانية وقلتُ مُشيرًا بالسوط: «خذوه، خذوه واحملوه، وألقوا به في البحر».

تقدَّموا إلى الأمام، وكان من الواضح أنَّهم لا يزالون يخافون من مونتجمري، لكنَّهم أكثر خوفًا من ضربات السوط الجلدي الأحمر. وبعد بعض الارتباك والتردُّد، وصوت ضربات السوط في الهواء، والصراخ، رفعوه بحذرٍ شديدٍ، وحملوه إلى الشاطئ، ثم خاضوا في مياه البحر اللامعة.

قلتُ: «استمروا! استمروا! خذوه إلى أبعد من ذلك».

ساروا حتى وصلت المياه إلى آباطهم، ثم وقفوا ينظرون نحوي.

قلتُ: «اتركوه الآن»؛ واختفى جسد مونتجمري داخل الماء. شعرتُ بضيقٍ في صدري.

قلتُ بصوتٍ متقطِّعٍ: «جيِّدا!». عادوا مسرعين وخائفين إلى حافة الماء، مخلِّفين آثارًا سوداء طويلة على لون البحر الفضي. توقَّفوا عند حافة الماء، واستداروا محدِّقين بالبحر؛ كأنَّما يتوقعون ظهور مونتجمري وانتقامه منهم.

«والآن هذه»، قلتُ وأنا أشير إلى الجثث الأخرى.

توخوا الحرص حتى لا يقتربوا من المكان الذي ألقوا فيه مونتجمري في الماء، وحملوا جثث البشر/الحيوانات الأربعة القتلى على طول الشاطئ، ربما لمئة ياردة قبل أن يخوضوا في الماء ويلقوا بهم بعيدًا.

في أثناء مشاهدتي لهم وهو يتخلَّصون من بقاياملينج المشوَّهة، سمعتُ وقع أقدامٍ خفيفة ورائي. استدرتُ بسرعة، ورأيت الضبع/الخنزير الكبير على بُعد قرابة اثني عشر ياردة. كان رأسه منحنيًا، وعيناه اللامعتان مثبتتين نحوي، ويداه القصيرتان مطبقين ومشدودتين بإحكامٍ إلى جانبه. ظلَّ على هذا الوضع عندما استدرتُ، وحاول أن يتجنَّب النظر نحوي.

وقفنا للحظة وجهًا لوجه. أسقطتُ السوط، وأخذتُ المسدس من جيبي؛ إذ أإِّني تعمَّدتُ قتْل هذا الوحش، أضخم وحش الآن على الجزيرة، عند أول فرصة ممكنة. قد يبدو الأمر غدرًا، لكنَّني كنتُ مصمِّمًا. كنتُ أخشاه أكثر بكثيرٍ من أي اثنين آخرين من البشر/الحيوانات. كان استمرار حياته يعني تهديدًا لحياتي.

استغرقتُ ما يقرب من عشر ثوانٍ لأستجمع نفسي؛ ثم صحتُ: «قدِّم التحية! واركع أمامي!».

ومضتْ أسنانه مزمجرًا، وقال: «مَن أنتَ الذي يجب أن...»

وجهتُ مسدسي نحوه، ربما بشيءٍ من التوتُّر، ثم أطلقتُ النار بسرعة. سمعته يعوي، ورأيته يجري جانبًا ويستدير، فعرفتُ أنَّ الطلقة لم تصبه. ضغطتُ على الزِناد بإبهامي ثانية، استعدادًا لطلقة ثانية. لكنَّه كان يركض متهورًا، ويقفز من جانبٍ إلى آخر؛ فلم أجرؤ على المخاطرة بفشلٍ آخر. كان ينظر نحوي من فوق كتفه بين الحين والآخر. أخذ يتمايل على طول الشاطئ، واختفى تحت اندفاع كتل الدخان الكثيف الذي لا يزال يتدفق من الحظيرة المحترقة. وقفتُ لفترة محدقًا إليه. التفتُ ثانية إلى البشر/الحيوانات الثلاثة المطيعين، وأشرتُ إليهم بإلقاء الجسم الذي لا يزالون يحملونه. ثم عدتُ إلى المكان الذي سقطتْ فيه الجثث، وركلتُ الرمال حتى امتصتْ جميع بقع الدم البنية وأخفتها.

حركتُ يدي بإشارة تنمُّ على موافقتي على ذهاب أتباعي الثلاثة، وتوجهتُ من الشاطئ إلى الغابة. حملتُ مسدسي في يدي، وعلَّقتُ سوطي والفأسين في حمَّالة ذراعي. حرصتُ أن أكون بمفردي، للتفكير في وضعي الحالي. بدأتُ أدرك شيئًا مروعًا، وهو عدم وجود مكانٍ آمنٍ على هذه الجزيرة كلها، يمكنني أن أبقى فيه وحدي آمنًا كي ارتاح أو أنام. لقد استعدتُ قوتي بشكلٍ مذهلٍ منذ وصولي إلى الجزيرة، بيد أنَّني لا زلت أميل إلى العصبية والانهيار تحت أيِّ ضغطٍ كبيرٍ. شعرتُ أنَّني يجب أن أنتقل إلى الجانب الآخر من الجزيرة وأقيم مع البشر/الحيوانات، كي أتمكَّن من تأمين نفسي باكتساب ثقتهم. لكن شجاعتي خذلتني. عدتُ إلى الشاطئ، واتجهت شرق الحظيرة المحترقة، ووصلت إلى بقعة ضحلة من الرمال المرجانية في اتجاه سلسلة صخور قريبة من المياه. هنا يمكنني الجلوس والتفكير، ظهري إلى البحر، ووجهي أمام أي مفاجأة. جلستُ وذقني على ركبتي، وأشعة الشمس تنهمر فوق رأسي، وخوفٌ لا يوصف يخيِّم على ذهني. فكرتُ كيف يمكنني العيش إلى أن يظهر أحدٌ وينقذني (إن حدث أصلًا). حاولتُ مراجعة الوضع كلِّه بهدوءٍ قدر الإمكان، وإنَّما كان يصعب استبعاد مشاعري.

بدأتُ أفكِّر في سبب يأس مونتجمري. قال «لكنَّهم سيتغيَّرون. من المؤكد أنَّهم سيتغيرون». ومورو، ماذا قال مورو؟ «يعودون ثانية؛ بمجرد أن أبعد يدي عنهم، يبدأ الوحش في الزحف عائدًا، ويبدأ في تأكيد نفسه مرة أخرى». ثم فكرت في الضبع/الخنزير.

شعرتُ أنَّني على يقينٍ أنَّ هذا الوحش سيقتلني، إن لم أقتله. مات القائل بالقانون: يا له من حظٍ سيئ. لقد عرفوا الآن أنَّنا، من نحمل السياط، يمكن أن نُقتَل مثلهم. هل يحدقون إليَّ بالفعل من بين كتل السرخس والنخيل الخضراء؛ يراقبونني إلى أن أقترب منهم؟ هل يتآمرون ضدي؟ ماذا يقول لهم الضبع/الخنزير؟ كان خيالي يأخذني إلى مستنقعٍ من المخاوف غير الحقيقية.

تشوَّشتْ أفكاري من صياح الطيور البحرية التي تتجه مسرعة نحو شيءٍ أسود قذفتْ به الأمواج إلى الشاطئ بالقرب من الحظيرة. كنتُ أعرف هذا الكائن، لكني لم أملك شجاعة كافية للعودة وطردهم. بدأتُ أسير على طول الشاطئ في الاتجاه المعاكس، ومصمِّمًا على الالتفاف حول الزاوية الشرقية من الجزيرة، والاقتراب من الوادي الضيق الذي يضم الأكواخ، دون المرور بالكمائن المحتمل وجودها في الأجمة.

أدركتُ -ربما بعد مسيرة نصف ميل على طول الشاطئ- أن أحدَ اتباعي الثلاثة من البشر/الحيوانات يخرج من شجيرات الغابة ويتجه نحوي. كنتُ عصبيًّا في ظلِّ تخيلاتي الخاصة، بحيث سحبتُ مسدسي على الفور. حتى إيماءات الاسترضاء التي قام بها المخلوق فشلتْ في نزع سلاحي. تردَّد وهو يقترب.

صحتُ: «ابتعد!».

كان هناك شيءٌ يشبه الكلب في موقف التذلُّل الذي اتخذه هذا المخلوق. تراجع قليلًا، مثل كلبٍ تأمره أن يعود إلى المنزل. ثم توقف، ونظر في وجهي باستجداءٍ، بعينيه البنية الشبيهة بأعين الكلاب.

قلتُ: «ابتعد، لا تقترب مني».

قال: «ألا يمكنني الاقتراب منك؟».

قلتُ بإصرارٍ، ملوِّحًا بالسوط: «لا، ابتعد». ثم وضعتُ سوطي بين أسناني، وانحنيتُ للإمساك بحجر. وأبعد هذا التهديد المخلوق.

وصلتُ بمفردي إلى الوادي الضيق، حيث يعيش البشر/الحيوانات، واختبأتُ بين الأعشاب وأعواد القصب التي تفصل هذا الصدع عن البحر، وأخذتُ أراقب كلَّ من يظهر منهم في محاولة للحكم عليهم من إيماءاتهم ومظهرهم، وكيف أثَّر عليهم موت مورو ومونتجمري وتدمير بيت الألم. أعرف الآن مدى حماقة جُبني. لو كنتُ قد حافظتُ على شجاعتي ولو قليلًا، ولم أسمح لها بالانحسار إلى فكرٍ منعزلٍ، لكنتُ تمكَّنتُ من الإمساك بصولجان مورو، وأصبحتُ حاكم هؤلاء البشر/الحيوانات. لكنني أضعتُ الفرصة، وغرقتُ في وضع الزعيم فقط بين زملائي.

ومع اقتراب الظهيرة، أتى بعضهم، وجلس القرفصاء يتشمَّس في الرمال الساخنة. تغلَّب صوتُ الجوع والعطش الشديدين على خوفي. خرجتُ من بين الشجيرات والمسدس في يدي، ومشيتُ نحو هؤلاء الجالسين. أدارت امرأة/ذئبٌ رأسها وحدَّقت بوجهي، وتلاها الآخرون. لم يحاول أحدٌ النهوض أو تحيتي. شعوري بالإغماء والإرهاق حال دون إصراري، فتركتُ اللحظة تمرُّ.

اقتربتُ منهم، وقلتُ بنبرة تشبه الاعتذار: «أريد طعامًا».

قال بتكاسلٍ رجلٌ/ثورٌ/خنزيرٌ: «يوجد طعامٌ في الأكواخ»، ثم أبعد نظره عني.

مررتُ بهم، وذهبتُ إلى الوادي الضيق شبه المهجور، بظلاله وروائحه. تناولتُ، في كوخٍ

فارغٍ، وليمة من بعض الفاكهة المرقطة ونصف الفاسدة. وبعد أن قمتُ بسد الفتحة ببعضِ الفروع والعصي، وحوَّلتُ وجهي تجاهها ويدي على مسدسي، شعرتُ بإرهاق ثلاثين ساعة الماضية وسقطتُ في غفوة خفيفة، على أمل أنَّ الحاجز الواهي الذي أقمته يمكن أن يُحدِث ضجة كافية تنقذني من أيِّ مفاجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(21)

ارتداد البشر/الحيوانات

أصبحتُ، بهذه الطريقة، واحدًا بين البشر/الحيوانات في جزيرة الدكتور مورو. عندما استيقظتُ، كان الظلامُ يحيط بي. شعرتُ بألمٍ في ذراعي المضمدة. جلستُ أتساءل في البداية أين أنا. سمعتُ أصواتًا خشنة تتحدَّث في الخارج، ثم رأيتُ أنَّ الحاجز الذي أقمته قد اختفى، وأصبحتْ فتحة الكوخ واضحة. لا يزال مسدسي في يدي.

سمعتُ شيئًا يتنفَّس، ثم رأيتُ شيئًا جاثمًا بالقرب مني. حبستُ أنفاسي، محاولًا أن أعرف ما هو. بدأ يتحرك ببطءٍ ودون توقف، ثم شعرتُ بشيءٍ ليِّن ودافئ ورطبٍ يمرُّ فوق يدي. تقلَّصتْ كلُّ عضلاتي، وسحبتُ يدي بسرعة. كدتُ أصرخ، لكن صوتي اختنق في حلقي. أدركتُ فقط أنَّ ما حدث يكفي لبقاء أصابعي على المسدس.

«مَن أنتَ؟»، قلتُ في همسٍ أجش، والمسدس لا يزال موجَّهًا.

«أنا.. يا سيدي».

«مَن أنتَ؟».

«يقولون إنَّه لا يوجد سيِّد الآن. لكنِّي أعرف، أعرف. أنا الذي حملتُ الجثث إلى البحر، جثث من قتلتهم أنتَ يا من مشيت في البحر! أنا عبدُك يا سيدي».

سألته: «هل أنتَ مَن قابلته على الشاطئ؟».

«نعم، أنا يا سيدي».

من الواضح أنَّ هذا الكائن مخلصٌ بالفعل؛ إذ كان يمكنه مهاجمتي وأنا نائمٌ. قلتُ: «حسنًا»، ومددتُ يدي ليلعقها في قُبلة أخرى. بدأتُ أدرك معنى وجوده، واستجمعتُ شجاعتي لأسأله: «وأين الآخرون؟».

قال الرجل/الكلب: «إنَّهم مجانين، إنَّهم حمقى. إنَّهم يتحدَّثون الآن معًا، هناك. يقولون إنَّ «السيِّد مات. والرجل الآخر الذي معه السوط، مات. والرجل الذي سار في البحر أصبح مثلنا. لم يعُد يوجد أيُّ سيِّدٍ، ولا أي سوط، ولا بيت للألم. هناك نهاية. نحن نحب القانون، وسوف نحافظ عليه. ولكن ليس هناك ألمٌ، ولا سيدٌ، ولا سياطٌ مرَّة ثانية أبدًا»ن هذا ما يقولونه. لكنَّني أعرف، أيُّها السيد، أنا أعرف».

تلمَّستُ في الظلام، وربتُ على رأس الرجل/الكلب. قلتُ ثانية: «حسنًا».

قال الرجل/الكلب: «سوف تذبحهم جميعًا الآن».

أجبتُ: «سوف أذبحهم جميعًا، بعد مرور أيامٍ معينة، وحدوث أشياءٍ معينة. سوف أقتلهم جميعًا، ما عدا من أعفو عنهم. وغير ذلك، يجب قتلهم جميعًا».

قال الرجل/الكلب وبصوته شعورٌ بالارتياح: «من يرغب السيِّد في قتله، سوف يقتله».

قلتُ: «سوف تزداد خطاياهم. دعهم يعيشون حمقى إلى أن يحين وقتهم. دعهم لا يعرفون أنني السيد».

«إرادة السيد جميلة»، قال الكلب/الرجل، بلباقة دمائه المستمدة من الكلاب.

قلت: «ولكن، إذا أخطأ أحدهم، سأقتله عندما أقابله. عندما أقول لك «هذا هو»، عليك أن تنقضَّ عليه. والآن سأذهب إلى الرجال والنساء المجتمعين معًا».

أظلمتْ فتحة الكوخ للحظة عند خروج الرجل/الكلب. تابعته، ثم وقفتُ تقريبًا في المكان نفسه الذي كنت أقف فيه عندما سمعتُ مورو وكلب الصيد يطارداني. لكنَّ الوقت ليل الآن، والسواد يلفُّ أنحاء الوادي الضيق الغائم، وما بعده؛ فبدلًا من المنحدر الأخضر الذي تضيئه أشعة الشمس، رأيتُ نارًا حمراء، وأمامها تتحرَّك شخصياتٌ بشعة حدباء جيئة وذهابًا. وأبعد منها، كانت الأشجار الكثيفة بمثابة كومة من الظلام، يحدُّها من أعلى شريطٌ أسود من الأغصان العلوية. وكان القمر يصعد لتوِّه نحو حافة الوادي الضيق، وتتحرك أمامه -كشريطٍ على وجهه- قمة البخار الذي يتدفَّق دومًا من فوهات براكين الجزيرة.

قلتُ متوترًا: «آمرك أن تمشي بجانبي». مشينا جنبًا إلى جنبٍ في الطريق الضيق، دون اهتمامٍ بالأشياء القليلة الصغيرة التي أطلَّت علينا من الأكواخ.

لم يحاول أحدٌ من الجالسين حول النار تحيتي. تجاهلني معظمُهم، بتفاخرٍ. بحثتُ بينهم عن الضبع/الخنزير، لكنَّه لم يكن هناك. بلغ عددُهم في مجملِه نحو عشرين من البشر/الحيوانات، يجلسون القرفصاء، ويحدقون إلى النار، أو يتحدثون بعضهم مع بعضٍ.

سمعتُ صوت الرجل/القرد عن يميني يقول: «لقد مات، مات! السيد مات! بيت الألم.. لا يوجد الآن بيتٌ الألم!».

قلتُ بصوتٍ عالٍ: «إنَّه لم يمت، وهو يراقبنا الآن حتى!».

أصابهم كلامي بالذهول. ونظر نحوي عشرون زوجًا من الأعين.

واصلتُ: «بيت الألم لم يعد موجودًا، لكنَّه سيعود ثانية. والسيد لا يمكنكم مشاهدته؛ إلَّا أنَّه يستمع الآن بينكم إلى ما تقولونه».

قال الرجل/الكلب: «هذا صحيحٌ، هذا صحيحٌ!».

أذهلهم تأكيدي. قد يتَّسم الحيوان بما يكفي من الشراسة والمكر، لكن الكذب من سمات البشر.

قال أحد البشر/الحيوانات: «الرجل ذو الذراع المضمد يقول شيئًا غريبًا».

قلتُ: «لقد أخبرتم بالحقيقية. سيعود السيد وبيت الألم ثانية. ويلٌ لمن يخالف القانون!».

نظروا بفضولٍ بعضهم إلى بعضٍ. اصطنعتُ عدم الاهتمام، وبدأتُ في ضرب الأرض أمامي بالفأس. لاحظتُ أنَّهم ينظرون إلى الشقوق العميقة التي أحدثتها في الأرض العشبية.

أثار الساتير بعض الشكوك، وأجبتُ عليه. ثم اعترض واحدٌ من الكائنات المرقَّطة، واندلعتْ مناقشة حادَّة حول النار. زاد اقتناعي كلَّ لحظة بشعوري الحالي بالأمان. أصبحتُ أتحدَّث دون أن ألتقط أنفاسي -وهو ما كان يحدث لي ويزعجني في البداية نظرًا لانفعالي الشديد. وفي غضون ما يقرُب من ساعة، كنتُ قد أقنعتُ بالفعل العديدَ من البشر/الحيوانات بحقيقة تأكيداتي، وتحدَّثتُ مع معظم الآخرين الذين كانوا يتشكَّكون. بقيتُ متيقظًا لظهور خصمي: الضبع/الخنزير، لكنَّه لم يظهر أبدًا. كنتُ أشعر بين الحين والآخر بحركة مريبة تزعجني، لكنَّ ثقتي كانت في ازديادٍ. وعندما أخذ القمرُ يتسلَّل منخفضًا من ذروته، بدأ المستمعون في التثاؤب واحدًا تلو الآخر (وظهرت أغرب أسنانٍ في ضوء النار التي تخبو). توجَّه أحدُهم ثم تلاه آخر نحو الأوكار في الوادي الضيق. وقد ذهبتُ معهم،

خشية الصمت والظلام، لمعرفتي أنَّ وجودي مع العديدين منهم أكثر أمانًا من وجودي مع واحدٍ فقط.

بهذه الطريقة بدأ الجزء الأطول من الإقامة في جزيرة الدكتور مورو. ومنذ تلك الليلة إلى أن جاءت النهاية، لم يحدث سوى شيءٍ واحدٍ يمكن قوله، باستثناء سلسلة من التفاصيل الصغيرة غير السارّة التي لا تُعد ولا تُحصى، والارتباك الناتج عن القلق المستمر. ولذلك، لا أفضل التحدُّث عن وقائع تلك الفجوة الزمنية، وإنَّما سوف أكتفي بسرد حادثة واحدة أساسية وقعتْ خلال عشرة أشهر التي أمضيتها كصديقٍ مقرَّبٍ من تلك الحيوانات النصف/بشرية. هناك العديد من الأشياء العالقة في ذاكرتي، ويمكنني كتابتها -أشياء أتمنَّى بسرورٍ نسيانها- لكنَّها لن تساعد في سرد القصَّة.

وباستعادة أحداث الماضي، من الغريب أن أتذكَّر كيف اعتدتُ بسرعة على أساليب أولئك الوحوش، واستعدتُ ثقتي ثانية. دخلنا في مشاجراتٍ بالطبع، ولا تزال بعض علامات أسنانهم تظهر على جسمي؛ لكن سرعان ما فزتُ باحترامهم لبراعتي في قذف الأحجار ولضربة فأسي. وكان ولاء الرجل/الكلب يخدمني بلا حدودٍ. لقد وجدتُ أنَّ مقياس شرفهم البسيط يستند بشكلٍ رئيسٍ إلى القدرة على إحداثِ جروحٍ بالغة. وفي واقع الأمر، يمكنني القول –بلا غرورٍ، كما آمل- إنَّني كنتُ متفوقًا بينهم. كان واحدٌ أو اثنان منهم (ممن هبطتْ معنوياتهم لأنِّي أصبتهم بجروحٍ شديدة) يحملون ضغينة تجاهي؛ لكنَّها لم تظهر إلَّا على شكل تجُّهمٍ، من وراء ظهري، وعلى مسافة آمنة من أسلحتي.

تجنبني الضبع/الخنزير، وكنتُ دائمًا في حالة تأهُّبٍ له. أمَّا تابعي، الرجل/الكلب، فكان يكرهه ويخشاه كثيرًا. وأعتقد بالفعل أنَّ هذا كان السبب الأساسي وراء تعلقه بي. وسرعان ما اتَّضح لي أنَّ الضبع/الخنزير تذوق طعم الدماء، ومضى على نهج الرجل/الفهد. فقد أقام مخبأً في مكانٍ ما في الغابة، وأصبح منعزلًا. حاولتُ مرَّة حثَّ البشر/الحيوانات على اصطياده، لكنَّني كنتُ افتقر إلى السلطة التي تجعلهم يتعاونون من أجل هدفٍ واحدٍ. وحاولتُ مرارًا وتكرارًا الاقتراب من عرينه، والانقضاض عليه فجأة؛ لكنَّه كان دائمًا حادَّ الذكاء ويراني، أو يروعني، ثم يهرب. كما أنَّه أقام أيضًا كمائن خفيَّة، جعلت مسارات الغابة محفوفة بالمخاطر بالنسبة لي ولحليفي. ولم يجرؤ الرجل/الكلب على الابتعاد عني.

في الشهر الأول أو نحو ذلك، كان البشر/الحيوانات يتصرفون بطريقة يغلب عليها الطابع البشري مقارنة بحالتهم السابقة؛ أدركتُ تسامُحًا وديًّا لدى واحدٍ أو اثنين آخرين، بالإضافة إلى صديقي الرجل/الكلب. أظهر المخلوق/الكسلان الوردي الصغير عاطفة غريبة تجاهي، وظلَّ يتبعني أينما ذهبتُ. على أنَّ الرجل/القرد أصابني بالملل؛ فقد افترض أنَّه على قدم المساواة معي، على أساس أن لديه خمسة أصابع، وكان لا يكفُّ عن الثرثرة أمامي بكلامٍ غير مفهومٍ/هراء بكلِّ معنى الكلمة. كان يتمتع بشيءٍ واحدٍ، يسليني قليلًا: كان يمارس خدعة رائعة لصياغة كلمات جديدة. كان لديه فكرة، كما اعتقد، أنَّ الثرثرة حول الأسماء التي لا تعني أي شيء هي الاستخدام السليم للكلام. وأطلق على ذلك اسم «الأفكار الكبيرة»، لتمييزها عن «الأفكار الصغيرة»، التي يعني بها الاهتمامات العاقلة للحياة اليومية. وإذا أبديتُ أيَّ ملاحظة ولم يفهمها، كان يثني عليها كثيرًا، ويطلب مني تكرَارها، ويحفظها عن ظهر قلبٍ ويظلُّ يكررها، مع كلمة خاطئة هنا أو هناك، أمام البشر/الحيوانات الأكثر اعتدالًا. لم يفكر في شيءٍ واضحٍ ومفهومٍ. وقد اخترعتُ بعض «الأفكار الكبيرة» الغريبة جدًّا حتى يمكنه استخدامها. أعتقد الآن أنَّه أسخف مخلوقٍ قابلته على الإطلاق؛ فقد طوَّر بأروع طريقة السخافة التي تُميِّز الإنسان، دون أن يفقد ذرة واحدة من حماقة القرد الطبيعية.

أقول إنَّ هذا كان الوضع في الأسابيع الأولى من عزلتي بين هؤلاء الوحوش. احترموا خلال

تلك الفترة نصوصَ القانون، وتصرَّفوا بلياقة عامة. وجدتُ مرَّة واحدة أرنبًا آخر مُمزَّقًا إلى أشلاء –وأنا على يقينٍ أنَّ الضبع/الخنزير هو من قام بذلك- لكنَّ الأمرَ لم يتكرر. وكان في شهر مايو، على وجه التقريب، عندما أدركتُ لأوَّل مرَّة بوضوحٍ وجودَ اختلافٍ متزايدٍ في حديثهم وحركتهم، وخشونة متزايدة في التعبير، وتزايُد رفضهم للكلام. تضاعف حجم ثرثرات الرجل/القرد، لكنَّها أخذت تصبح أقلَّ فهمًا، وأكثر شبهًا بلغة القرود. وبدتْ قدرة البعض الآخر على الكلام تتراجع تمامًا، على الرغم من استمرار فهمهم لما أقوله لهم في تلك الفترة. (هل يمكنك أن تتخيَّل لغة، كانت واضحة ودقيقة ذات يومٍ، ثم أخذت تلين وتضعف وتفقد شكلها ومضمونها، إلى أن أصبحت ثانية مجرد كتلٍ من الصوت؟). كما أصبح سيرهم منتصبين القامة يزداد صعوبة. وعلى الرغم من أنَّهم شعروا بالخجل من أنفسهم، فقد كنتُ أرى بين الحين والآخر واحدًا أو أكثر منهم يركض على أصابع قدميه وأطراف أصابعه، وعاجزًا تمامًا عن استعادة الوضع الرأسي. وكانوا يحملون الأشياء بطريقة خرقاء. كما زاد تدريجيًا الشرب عن طريق الامتصاص، والتغذية عن طريق القضم. أدركتُ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى ما قاله لي مورو عن «استعادة الطبيعة الحيوانية». كانوا يرتدون إليها، يرتدون بسرعة كبيرة.

بدأ بعضُهم في تجاهُل أمر اللياقة، وعن عمدٍ في أغلب الأحيان. ولاحظتُ، مع دهشتي، أنَّ جميعَ الإناث هنَّ الرواد في هذا السلوك. وحاول حتى آخرون خرق القانون الذي ينصُّ على مؤسسة الزواج الأحادي. وأصبح من الواضح أنَّ تعاليم القانون تفقد قوتها. لا يمكنني متابعة هذا الموضوع البغيض.

ارتدَّ تابعي، الرجل/الكلب، بشكلٍ غيرِ محسوسٍ إلى كلبٍ مرَّة أخرى؛ أصبح، يومًا بعد يوم، أبكمَ، يسير على أربع، وتزايدت كثافة شعره. وبالكاد ما لاحظتُ انتقاله من رفيقٍ يسير على يميني إلى كلبٍ يترنَّح إلى جانبي.

ومع تزايد الإهمال، وعدم التنظيم من يومٍ إلى آخر، تحوَّل ممرُّ أماكن السكن –الذي لم يكن لطيفًا أبدًا– إلى مكانٍ بغيضٍ؛ فتركته ومضيتُ متجوِّلًا في أنحاء الجزيرة، وصنعتُ لنفسي كوخًا من الأغصان وسط الأنقاض السوداء لحظيرة مورو. واكتشفتُ أنَّ بعض ذكرياتهم الأليمة لا تزال تجعل هذا المكان أكثر أمانًا من البشر/الحيوانات.

من المستحيل عرض وصفٍ تفصيليٍّ لكلِّ خطوة من خطوات ارتداد هؤلاء الوحوش، وكيف بدأ المظهر البشري يزول يومًا بعد يومٍ، وكيف تخلَّصوا من الضمادات والأربطة إلى أن تخلَّصوا في النهاية من كل ملابسهم، وكيف بدأ الشعر ينتشر على أطرافِهم المكشوفة، وكيف تراجعت جباهُهم وبرزت وجوههم، وكيف أصبحت العلاقة الحميمة شبه البشرية، التي سمحتُ بها لنفسي مع بعضهم في الشهر الأول من وحدتي، رعبًا مروعًا لا أريد أن أتذكره.

كان التغيير بطيئًا وحتميًا؛ ولم يشكِّل أيَّ صدمة، سواء بالنسبة لهم أو بالنسبة لي. لا زلت أتحرَّك بينهم في أمانٍ؛ فلم تحدث أيُّ صدماتٍ خلال ارتدادهم تؤدي إلى إطلاق الشحنة المتزايدة من الحيوانية المتفجرة التي أطاحت بالإنسان داخلهم تدريجيًا. لكنني بدأتُ أخشى أن تأتي تلك الصدمة قريبًا. كان الرجل/الكلب يتبعني إلى الحظيرة كلَّ ليلة، وتمكَّنتُ بفضل يقظته من النوم أحيانًا في سلامٍ. أصبح حيوان الكسلان الوردي الصغير خجولًا، وتركني ليعود إلى حياته الطبيعية مرَّة أخرى بين أغصان الأشجار. كنَّا نعيش حالة من التوازن، الحالة التي قد تدوم داخل أحد أقفاص «الأسرة السعيدة» التي يعرضها مروِّض الحيوانات، إذا تركها المروض على حالها إلى الأبد.

لم تتراجع هذه المخلوقات بالطبع إلى وحوشٍ مثل هذه التي يشاهدها القارئ في حدائق الحيوان -إلى الدببة، والذئاب، والنمور، والثيران، والخنازير، والقردة العاديين- بل استمرَّ

وجود شيء غريب في كلٍّ منهم. فقد مزج مورو بين الحيوانات؛ ربما كان أساس أحدهما من الدببة، والآخر من القطط، أو الأبقار. وبالتالي كان كلُّ حيوانٍ يضم سمات مخلوقاتٍ أخرى، نوعًا من الحيوانية المعممة التي تظهر من خلال تصرفات محددة. على أن بقايا البشرية المتراجعة كانت تذهلني بين الحين والآخر، ربما استعادة الكلام لحظيًّا، أو براعة غير متوقعة للقدمين، أو محاولة عقيمة للمشي في وضع رأسي.

لا بُدَّ أنَّ تغيُّراتٍ غريبة قد حدثت لي أيضًا. تدلَّت ملابسي فوقي كأسمالٍ صفراء بالية، وظهرت من خلال ثقوبها بشرتي التي صبغتها الشمس. نما شعري طويلًا، وأصبح متشابكًا. وقيل لي إنَّ عيني لا تزال تلمع حتى الآن بشكلٍ غريبٍ، وتتسم باليقظة وسرعة الحركة.

كنتُ في البداية أمضي ساعات النهار على الشاطئ الجنوبي في انتظار ظهور أي سفينة، كنتُ آمل وأصلي من أجل ظهورها. اعتمدتُ على عودة «إبيكاكوانا» مع انقضاء العام، لكنَّها لم تأتِ أبدًا. رأيتُ أشرعة مراكب خمس مرات، ودخانًا ثلاث مرات؛ وإنَّما لم تصل أيٌّ منها إلى الجزيرة. كنتُ جاهزًا دائمًا لإشعال النار، لكن جميع البحارة تعرف السمعة البركانية للجزيرة.

ولم يكن إلا في سبتمبر أو أكتوبر أن بدأت أفكر في صنع طوفٍ. بحلول ذلك الوقت، كانت ذراعي قد شُفيت، وعادت يداي إلى طبيعتهما ثانية. في البداية، وجدتُ عجزي مروعًا؛ فلم يسبق لي أن مارست أيَّ أعمالٍ في مجال النجارة، أو أي عملٍ مماثلٍ في حياتي. أمضيتُ أيامًا في محاولة تقطيع الأشجار وربط أخشابها. لم يكن لديَّ أيُّ حبال، ولم أجد شيئًا يمكنني استخدامه لصنع حبال. ولم تكن النباتات المتسلقة الوفيرة تبدو مرنة أو قوية بما يكفي. ومع كل ما تبقى لديَّ من تعليمٍ علميٍّ، لم أتمكَّن من ابتكار أي وسيلة لاستخدام تلك النباتات. أمضيتُ أكثر من أسبوعين أنقِّب بين الأطلال السوداء للحظيرة وعلى الشاطئ حيث أُحرِقت القوارب، وأبحث عن مسامير وغيرها من القطع المعدنية المتناثرة التي يمكن الاستعانة بها. وفي بعض الأحيان، كان أحد المخلوقات الحيوانية يراقبني، وعندما أناديه يقفز مبتعدًا. جاء موسم من العواصف الرعدية والأمطار الغزيرة، أعاق عملي كثيرًا؛ لكن الطوف اكتمل أخيرًا.

كنتُ مسرورًا به. ونظرًا لغياب حسِّي العملي، الذي كان دائمًا سببَ أي أذى أتعرَّض له، صنعتُ الطوف على بُعد ميلٍ أو أكثر من البحر؛ وقبل أن أجره إلى الشاطئ، تفكَّك إلى قطعٍ. ربما أنقذني تفكُّكه مما كان يمكن أن يحدث لي إن انطلقت به. لكن بؤسي من فشلي كان شديدًا حينذاك، لدرجة أنني كنت أتجول أحيانًا على الشاطئ وأحدق بالماء، وأفكر في الموت.

ومع ذلك، لم يكن تفكيري يعني أنَّني أرغب في الموت. وقع حادثٌ حذَّرني بشكلٍ واضحٍ لا لبس فيه من حماقة ترك الأيام تمرُّ على هذا النحو؛ فكلُّ يومٍ جديدٍ كان محفوفًا بخطر البشر/الحيوانات المتزايد.

كنتُ مستلقيًا تحت ظلِّ جدارِ الحظيرة أحدِّق بالبحر، عندما فوجئتُ بشيءٍ باردٍ يلمس كعب قدمي. نظرتُ حولي، فرأيت مخلوق/الكسلان الوردي الصغير يرمش بعينيه نحو وجهي. كان قد فقد القدرة على الكلام والحركة النشطة منذ فترة طويلة، وازداد شعره الهزيل كثافة، كما أصبحت مخالبه الملتوية أكثر انحناء. أصدر ضجيجًا بأنينه عندما أدرك أنَّه جذب انتباهي، ثم ابتعد قليلًا في اتجاه الشجيرات ونظر نحوي.

لم أفهم في البداية، لكنني سرعان ما أدركتُ أنَّه يريدني أن أتبعه؛ وتبِعته أخيرًا بالفعل، وإنَّما ببطءٍ نظرًا لأنَّ النهار كان حارًا. وعندما وصلنا إلى الأشجار، أخذ يتسلَّقها؛ لأنَّ حركته بين نباتاتها المتسلِّقة المتأرجِحة كانت أفضل من حركته على الأرض. وفجأة، في موقع

سبق السير فيه، رأيتُ مشهدًا مروعًا. كان تابعي، المخلوق/الكلب، مُلقى على الأرض مقتولًا؛ وبالقرب من جسده يجثم الضبع/الخنزير وهو يمسك لحم ضحيته المرتعش بمخالبه المشوهة، ويقضمه مزمجرًا في سرور. وعندما اقتربتُ، رفع الوحش عينيه اللامعتين ناظرًا نحوي، وارتجفتْ شفتاه بحيث أظهرت أسنانه الملطخة بالدماء، وأخذ يزمجر بشكلٍ تهديديٍّ. لم يكن خائفًا أو خجلًا؛ فقد اختفت آخر بقاياه البشرية. تقدَّمتُ خطوة، ثم توقفتُ وسحبتُ مسدسي. أصبحنا أخيرًا وجهًا لوجه.

لم يبدِ الوحش أيَّ علامة على التراجع؛ لكن أذنيه تراجعتا إلى الخلف، وانتصب شعره، وحنى جسده. وجهتُ مسدسي بين عينيه وأطلقتُ النار. وعندئذٍ نهض المخلوق مباشرة وقفز فوقي، فوقعتُ على الأرض. أمسكني بيده المشلولة، وضربني في وجهي. كانت قفزته قد حملته فوقي، ووقعتُ تحت الجزء الخلفي من جسده؛ ومن حسن الحظ أن طلقتي أصابته ومات وهو يقفز. زحفتُ من تحت كتلة جسمه القذرة ووقفتُ مرتجفًا، أحدِّق بجسده المرتعش. انتهى هذا الخطر على الأقل؛ لكنني كنت أعرف أنَّ هذا الحادث هو الأول فقط من سلسلة الانتكاسات التي لا بُدَّ أن تحدث.

أحرقتُ الجثتين على محرقة من الحطب. أدركتُ أنَّ موتي هو مجرد مسألة وقت، إن لم أغادر الجزيرة. كان البشر/الحيوانات في تلك الفترة، باستثناء واحد أو اثنين، قد غادروا الوادي الضيق وأقاموا لأنفسهم مخابئ، وفقًا لذوق كل منهم، بين غابات الجزيرة. كان عددٌ قليلٌ منهم يتجوَّل في الجزيرة نهارًا، ومعظمهم ينام؛ بحيث قد تبدو الجزيرة مهجورة بالنسبة إلى أي وافدٍ جديدٍ. أمَّا في الليل، فقد أضفى نداؤهم وعويلهم بشاعة على المكان. فكرتُ متهورًا أن أقيم لهم مذبحة؛ أبني الفخاخ، أو أقاتلهم بسكيني. لو كانت لديَّ خراطيش كافية، لما ترددتُ في بدء القتل. لم يتبقَّ من آكلي اللحوم الخطرين أكثر من عشرين؛ وقد مات أشجعهم بالفعل. تعوَّدتُ أنا أيضًا، بعد وفاة كلبي المسكين، صديقي الأخير، أن أنام خلال النهار لأتمكَّن من حراسة نفسي في الليل. تولَّيتُ إعادة بناء عريني في جدران الحظيرة، بفتحة ضيقة؛ بحيث تحدث ضوضاءٌ شديدة إذا حاول أيُّ كائنٍ الدخول. فقدتْ المخلوقات أيضًا فن إبرام النيران، واستعادت خوفها منها. بدأتُ مرة أخرى، بحماسٍ الآن، أجمع الأوتاد والفروع لبناء طوف الهروب.

واجهتُ ألفَ صعوبة. أنا رجلٌ غيرُ عمليٍّ على الإطلاق (أنهيتُ دراستي قبل إدخال التعليم المهني)؛ لكنَّني تمكَّنتُ أخيرًا من توفير معظم متطلبات صناعة الطوف بطريقة أو بأخرى، خرقاء أو ملتوية، وأوليتُ عناية هذه المرة بمتانته. أما العقبة الوحيدة التي لم أستطع التغلُّب عليها، هي عدم وجود وعاءٍ لأضع فيه المياه التي لا بُدَّ أن أحتاجها إذا خضتُ هذه البحار المجهولة. كنتُ سأجرِّب الفخار، لكنَّ الجزيرة لم تكن تحتوي على طينٍ. اعتدتُ أن أتجوَّل في أنحاء الجزيرة، وأحاول بكلِّ ما أوتيت من قوة أن أحلَّ هذه الصعوبة الأخيرة. كنتُ أترك العنان لنوبات غضبي الجامحة أحيانًا، وأكسر وأمزِّق شجرة سيئة الحظ في غضبي الشديد. لكنَّني لم أتمكَّن من حلِّ المشكلة.

ثم جاء يومٌ، يومٌ رائعٌ، أمضيته في ابتهاجٍ. رأيتُ شراعًا في اتجاه الجنوب الغربي، شراعًا صغيرًا مثل أشرعة المراكب الشراعية الصغيرة. أشعلتُ على الفور كومة كبيرة من الحطب، ووقفتُ بجانبها، في ظلِّ حرارتها وحرارة شمس منتصف النهار، وأخذتُ أنظر مليًّا. بقيتُ طوال اليوم أنظر إلى الشراع، لم أتناول أيَّ طعامٍ أو شرابٍ، إلى أن ترنَّح رأسي. جاءت الوحوش وحدَّقت بي متسائلة، ثم ابتعدتْ. كان المركب لا يزال بعيدًا عندما جاء الليل وابتلعه، وبقيتُ أجاهد طوال الليل لتستمر النار ساطعة وعالية، وواصلتْ أعين الوحوش اللامعة ترقبني متعجبة خلال الظلام. أصبح الشراع أقرب مع طلوع الفجر، ورأيتُ أنَّه شراعٌ رباعيٌّ متَّسِخ لقاربٍ صغيرٍ، لكنَّه يبحر بشكلٍ غريبٍ. كانت عيناي مرهقتين من المشاهدة، وحدقت مليًّا ولم أستطع تصديقهما. كان في القارب رجلان يجلسان على

مستوى منخفضٍ، أحدهما عند المقدمة والآخر عند الدفة. لم يكن رأس القارب في اتجاه الريح؛ بل انحرفت ومالت إلى الأمام.

ومع إشراقة ضوء النهار، بدأتُ ألوِّح لهما بآخر خرقة متبقية من سترتي، لكنهما لم يلاحظاني، وظلا جالسين متواجهين. ذهبتُ إلى أدنى نقطة في اللسان المنخفض، وأخذتُ ألوِّح وأصيح. لم أتلقَّ أي استجابة، واستمرَّ القارب في مساره بلا هدفٍ ببطءٍ، ببطءٍ شديدٍ، في اتجاه الخليج. وفجأة اندفع طائرٌ أبيض كبيرٌ من القارب، ولم يتحرك أي من الرجلين أو حتى يلاحظه. أخذ الطائر يدور، ثم اندفع بقوة فوقهما فاردًا جناحيه القويين.

توقفتُ عن الصراخ، وجلستُ على اللسان. وضعتُ ذقني بين يدي وحدَّقت. سار القارب ببطءٍ شديدٍ في اتجاه الغرب. فكرت أن أسبح إلى القارب، لكنَّ شيئًا ما –خوف بارد وغامض– منعني. في فترة ما بعد الظهر، دفع المدُّ القاربَ نحو الشاطئ، على مسافة مائة ياردة تقريبًا، غرب أنقاض الحظيرة. كان الرجلان ميتين. ماتا منذ فترة طويلة، لدرجة أنَّهما سقطا أشلاء عندما أملت القارب على جانبه وسحبتهما منه. كان شعر أحدهما أحمر ومشعث، مثل قبطان المركب «إيبيكاكوانا»، وتوجد قبعة بيضاء متسخة في قاع القارب.

وبينما كنت أقف بجانب القارب، تسلَّل ثلاثة وحوش من بين الشجيرات وأخذوا يتشمَّمون المكان حولي. أصابتني إحدى نوبات الاشمئزاز. دفعتُ القارب الصغير إلى الشاطئ وصعدتُ على متنه. اقترب وحشان، وكانا من الذئاب، بأنوفٍ مرتعشة وأعين لامعة. وكان الوحش الثالث فظيعًا، يصعب وصفه، عبارة عن مزيجٍ بين دبٍّ وثورٍ. عندما رأيتهم يقتربون من بقايا تلك الجثث البائسة، وسمعتهم يزمجرون، ورأيتُ لمعان أسنانهم، حلَّ رعبٌ محمومٌ محل شعوري بالاشمئزاز. أدرتُ ظهري لهم، وفردتُ الشراع الرباعي، وبدأت التجديف في البحر. لم أستطع أن أنظر خلفي.

توقفتُ في تلك الليلة بين الجزيرة وسلسلة الصخور القريبة من سطح المياه. وفي صباح اليوم التالي، ذهبتُ إلى الجدول المائي وملأتُ برميلًا فارغًا على المركب بالماء. وبقدر ما أستطيع من صبرٍ، جمعتُ كمية من الفاكهة، وتربَّصتُ بأرنبين وقتلتهما بآخر ثلاثة خراطيش تبقَّت معي. وأثناء قيامي بذلك، وخوفًا من البشر/الحيوانات، تركتُ القاربَ راسيًا عند بروزٍ داخلي في سلسلة الصخور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(22)

رجلٌ وحيدٌ

بدأتُ مساءً، وانطلقتُ في البحر مع رياحٍ خفيفة تهبُّ من الجنوب الغربي. أبحرتُ ببطءٍ وثباتٍ؛ وأخذت الجزيرة تبدو تدريجيًّا أصغر فأصغر، كما تضاءلتْ قمة الدخان إلى خطٍ رفيعٍ في مواجهة غروب الشمس الحار. ارتفع المحيط من حولي، وأخفى تلك البقعة المنخفضة الداكنة عن عيني. انحسر ضوء النهار، وابتعد مجد الشمس المصاحب بعيدًا عن السماء مثل ستارة مضيئة، وأخيرًا نظرتُ إلى الفضاء الأزرق الهائل الذي تخفيه أشعة الشمس، ورأيتُ جمهرة النجوم العائمة في السماء. كان البحر صامتًا، والسماء صامتة. كنتُ وحيدًا مع الليل والصمت.

انجرفتُ ثلاثة أيام، ولم أتناول الطعام والشراب إلا لمامًا. أخذتُ أتأمَّل كلَّ ما حدث لي، ولم تكن رغبتي كبيرة لرؤية البشر ثانية. كنتُ أرتدي خرقة متسخة من الملابس، وكان شعري متشابكًا أسود: لا شكَّ أنَّ من اكتشفوني تصوَّروا أنَّني مجنونٌ.

من الغريب أنَّني لم أشعر بأيِّ رغبة في العودة إلى البشرية. كانت سعادتي تقتصر على خلاصي من حماقة البشر/الحيوانات. وفي اليوم الثالث وجدتني سفينة كانت متجهة من أبيا إلى سان فرانسيسكو. لم يكن القبطان أو رفيقة يمكن أن يصدِّقا قصتي، بل سيعتبران أنَّ العزلة والخطر أصاباني بالجنون. وخشية أن يكون رأيهما هو رأي الآخرين، امتنعتُ عن سرد مغامرتي، وقلت إنَّني لا أتذكر ما حدث لي منذ فقدان السفينة «ليدي فين» ووقت عثورهما عليَّ، أي فترة سنة.

كان لا بُدَّ أن أتصرف بأقصى قدرٍ من الحذر، لأنقذ نفسي من شبهة الجنون. طاردتني ذكرياتي عن القانون، والبحارة الاثنين القتلى، والكمائن في الظلام، والجسد المُلقى بين أعواد القصب. وقد يبدو الأمر غيرَ طبيعيٍّ، أنَّني لم أشعر -مع عودتي إلى البشرية- بالثقة والتعاطُف اللذين كنتُ أتوقعهما، بل زاد على نحوٍ غريبٍ شعوري بالرهبة وعدم اليقين الذي عانيته خلال إقامتي على الجزيرة. لن يصدقني أحدٌ؛ كنتُ غريبًا بالنسبة للبشر كما كنتُ غريبًا بالنسبة للبشر/الحيوانات. ربما التقطتُ شيئًا من طبيعة رفاقي الجامحة على الجزيرة. يقولون إنَّ الرعبَ مرضٌ. وعلى أي حالٍ، يمكنني أن أشهد أنَّ الخوفَ المستمرَّ لا يزال لعدة سنوات الآن يسكن في ذهني، مثل الخوف الذي يشعر به شبل الأسد الذي لا يزال يحتاج إلى ترويضٍ.

اتخذ اضطرابي أغربَ شكلٍ. لم أستطع إقناع نفسي أنَّ الرجال والنساء الذين التقيتُ بهم ليسوا أيضًا من البشر/الحيوانات؛ حيوانات خضعوا لعمليات تجعل أشكالهم الخارجية تشبه البشر، لكنَّهم سوف يبدأون حاليًا الارتداد إلى هيئتهم الأصلية، سوف تبدأ العلامات الحيوانية في الظهور واحدة تلو الأخرى. وقد وثقتُ في رجلٍ شديدِ المهارة وأخبرته بالأمر كلِّه. كان الرجل متخصصًا في الأمراض العقلية، ويعرف مور، ويبدو أنَّه صدَّق قصَّتي إلى حدٍّ ما. لقد ساعدني كثيرًا، على الرغم من أنَّني لا أتوقَّع أنَّ الرعب الذي عانيته في تلك الجزيرة سوف يولِّي إلى غير رجعة؛ فهو يقبع في خلفية ذهني، ويظهر في معظم الأحيان كمجرد سحابة بعيدة، وذكرى، وانعدام ثقة طفيفٍ. بيد أنَّ هذه السحابة الصغيرة كانت تنتشر، في بعض الأوقات، إلى أن تحجب السماء كلها. وعندئذ أنظر إلى زملائي البشر من حولي، وأشعر بخوفٍ. أرى وجوهًا حريصة ومشرقة؛ ووجوهًا أخرى متجهمة أو خطيرة، ووجوهًا مضطربة ومخادعة، لا يتمتع أيٌّ منهم بهدوء الروح المعتدلة. أشعر كأنَّ الحيوان يظهر من خلالِهم، وأنَّ الارتداد الذي حدث لسكان الجزيرة سيتكرَّر ثانية على نطاقٍ أوسع. أعرف أنَّ هذا وهمٌ، وأنَّ هؤلاء الرجال والنساء حولي هم في الواقع رجال ونساء، رجال

ونساء إلى الأبد، مخلوقات عاقلة تمامًا، مملوءة برغباتٍ بشرية وتلتمس العطاء، ولا تتحكَّم فيهم الغريزة، وليسوا عبيدًا لأيِّ قانونٍ رائع، إنَّهم كائناتٌ مختلفة تمامًا عن البشر/الحيوانات. ومع ذلك كنتُ أنفر منهم، ومن نظراتهم الغريبة، واستفساراتهم ومساعدتهم، وأتوق إلى الابتعاد عنهم والبقاء وحيدًا. ولهذا السبب، أعيش بالقرب من الأراضي المنخفضة الفسيحة الخالية، ويمكن الهروب هناك عندما يخيِّم هذا الظلُّ على روحي. وعندئذٍ أجد الأراضي المنخفضة الخالية رائعة، تحت السماء التي اجتاحتها الرياح.

عندما عشتُ في لندن كان الرعبُ غيرَ محتملٍ. لم أتمكَّن من الابتعاد عن البشر: كانت أصواتُهم تأتي عبر النوافذ، ولم تكن الأبواب المغلقة حماية كافية لعدم دخولها. كنت أخرج إلى الشارع لمواجهة أوهامي، فأجد النساء المتجوِّلات يهمسن لي؛ والرجال الماكرين ينظرون نحوي في غيرة؛ والعمال الشاحبين المتعَبين يسعلون وهم يسيرون حولي بأعين متعبة وخطواتٍ سريعة متلهفة، كالغزلان الجرحى التي تقطر دمًا؛ ويسير كبار السن، المحنيون المتجهمون، وهم يغمغمون لأنفسهم؛ والجميع غير مبالٍ بالأطفال المتهكمين الذين يسيرون خلفهم. أذهب بعد ذلك إلى كنيسة صغيرة، وحتى هناك، كنتُ أشعر باضطرابٍ، حيث أتصوَّر أنَّ الواعظ يثرثر حول «التفكير الكبير»، كما كان يفعل الرجل/القرد؛ أو أذهب إلى مكتبة، حيث أتصوَّر أنَّ الوجوه المنكبَّة على الكتب وكأنَّها مخلوقاتٌ تنتظر فريستها في صبرٍ. وكان أكثر ما يثير غثياني هو وجوه البشر الخالية من أيِّ تعبيرٍ في القطارات والحافلات؛ إذ لم أعد اعتبرهم زملائي البشر، وإنَّما مجرد أجسادٍ ميتة، وبالتالي لم أكن أجرؤ على الارتحال إلَّا إذا تأكدُت أنَّني سأكون بمفردي. وحتى أنا نفسي، لم أكن أبدو أيضًا كمخلوقٍ عاقلٍ، وإنَّما فقط كحيوانٍ يعاني اضطرابًا غريبًا في عقله يجعله يتجوَّل بمفرده كخروفٍ مريضٍ.

هذه كانت حالتي المزاجية؛ على أنَّها -شكرًا للرب- لم تعد تنتابني الآن إلَّا في ما ندر. لقد انسحبُت بعيدًا عن فوضى المدن والتجمُّعات، وأقضي أيامي محاطًا بالكتب الحكيمة؛ فهي بمثابة نوافذ مشرقة في حياتنا هذه، التي تضيئها نفوس رجالٍ لامعين. أرى بعض الغرباء، ولديَّ أسرةٌ صغيرة. أكرِّس أيامي للقراءة وتجارِب الكيمياء، وأقضي الكثيرَ من الليالي الصافية في دراسة الفلك. أشعر بسلامٍ وحماية لا نهائيين في الأجرام السماوية المتلألئة، على الرغم من أنَّني لا أعرف كيف أو لماذا تولَّد هذا الشعور. أعتقد أنَّ كلَّ ما هو أسمى من الحيوانية داخلنا يجد عزاءه وأمله في القوانين الشاملة والأبدية للمادة، وليس في هموم البشر وخطاياهم ومتاعبهم اليومية. لديَّ أملٌ، ولولاه ما تمكَّنتُ من العيش.

وهكذا، بالأمل والعزلة تنتهي قصتي.

إدوارد بريند يك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

وحدي مع البشر/الحيوانات

(21)

ارتداد البشر/الحيوانات

(22)

رجلٌ وحيدٌ

Notes

[←1]

البوما: قطٌّ أمريكيٌّ كبيرٌ يشبه الأسد - المترجمة (1)

[←2]

(2) جريدة ديلي نيوز (Daily News) 17 مارس 1887.

[←3]

(3) تعيش على سطح التربة أو الصخور على شكل أوراقٍ عريضة ومسطحة -
https://en.wikipedia.org/wiki/Lichen - المترجمة.

[←4]

(4) الزواف: كتيبة عسكرية تشكَّلت بداية في الجزائر، خلال العهد العثماني، وضمَّت جزائريين من أنحاء البلد كافة – المترجمة.

[←5]

(5) سكان هاواي الأصليون – المترجمة.

[←6]

(6) يتطابق هذا الوصف تمامًا، من جميع جوانبه، وجزيرة نوبل – تشارلز إدوار بريينديك.

[←7]

(7) أريكا: مدينة ساحلية، تقع في شمال شيلي – المترجمة.